نجوى بركات

بَاصُ الأَوَادِم

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

دار الآداب

scanned by
jamal hatmal

باحث «الأوادم»

باص «الأوادم»

بالتعاون مع **الناصر خمير**

وقد وضعت هذه الرواية إنطلاقاً

من حكايا رواها لي...

نجوى بركات

باص «الاوادم»

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٦

- ١ -

دخل يوسف يطلب ماءً.

كان الحانوت ثغرة مربّعة توارت في سور المدينة الذي ضَمُر بعد أن دُكّ معظمه. وطيء درجات لم تستوِ لقدميه، إذ ازدادت تباعاً مع ارتفاع تراب الفناء الخارجي. أحنى رأسه ثم كتفيه، ليستطيع الولوج.

استقبلته عتمة رطبة لم تعتدها عيناه إلاّ بعد حين، فطالعتاه بشيخ تربّع على الديوان في فسحة ضيّقة، عاقداً يديه على كَرْشِهِ. ماذا تُطلب قال له.

نظر يوسف إلى رفوف صغيرة اصطفّت فوقها أغراض محا التراب هويّتها وساواها بطين الجدران. قنّينة ماء، أجاب. مدّ الحانوتيّ يده بإناء، ثم أعادها إلى حيث أختها. رواه الماء.

وقف في الباب ظلٌّ طَرَدَ الشحيح من النور وسأل : باللّهِ عليك، أبحث عن باب المدينة الجنوبيّ. تحرّك الحانوتيّ يسوّي شاشيّة رأسه بما معناه : أغريب هو عن الديار؟ ثم تأمّل في وجه السائلِ لحظة يعيد إليه السؤال : باب المدينة الجنوبيّ؟ دكّوه منذ زمان. وحده هذا الجزء بقي ناهضاً. لو قيّضوه لانهارت ديار تمتدّ وراءه وترتكز عليه. إلى أين تقصد؟ بني سلطان؟ وصلت. اجتز هذه الساحة إلى الجهة المقابلة، ثم اقطع الطريق العام، عند أسفل

المدافن تجد موقف العربات... أكبر الظنّ أنك تأخّرت، وربما كان من الأفضل أن تعود صباح الغد...

شكر الرجل الحانوتيّ بعد أن زان له هذا الأخير وزناً من السكّر، ثم قطع المحلّة ومضى.

خرج يوسف ووقف يتأمّله يبتعد من الوراء. بني سلطان. دغدغ هذا الاسم قلبه وعبث فيه. تردّد يوسف. لِمَ لا؟ علّه يجد هناك اثراً لما أضاعه. ألقى نظرة سريعة على أبنية التوَتْ فتخاصرت، كمن يسائلها رأياً، ثم رفع قدماً تبعتها الأخرى، وسار.

في وسط الميدان، ربض باص صعد على ظهره رجلان -معاون السائق وحمّال- راحا يُلقيان حبالاً، فيما انهمكت امرأة في توجيه أوامرها بضرورة الحرص وعدم التفريط في رزق الناس : يا خلق الله، هذا أثاث عروس! حذارِ الخدوش!

تخفض ابنتها العروس رأسها حياءً، وتصعد غرفة نومها الى السطح. السرير والخزانة، الفِراش والمرآة. ارائك، وسادتان، لِحاف وأكياس تغلّف الملاءة والمِردّ... ثم قفف ومتاع وصرر لركّاب آخرين، تدور الحبال تزنّرها وتوثق الحزام.

اقبل رجل يركض وراء كتاب سميك ضمّه إلى صدره. اجلس نظّارتيه على أنفه، ولاهثاً قال : نحمد اللّه اني وصلت في الميعاد. خِلتُ اني لن أنهيه تقرير المحكمة، وانني لا ريب واصل بعد رحيل الباصات!

ابتسم المعاون : لا تخف، بكّرت مع أنك تأخّرت بالفعل. لو لم نكن مضطرّين لزيارة العاصمة، لما وجدتَ في مثل هذه الساعة باصاً يقلّك إلى حيث تقصد. من عادتنا العمل على خطّ الجنوب،

ونادراً ما نأتي إلى الشمال... ثم تطلّع حواليه ونادى بصوتٍ للسماع : ذهب السائق إلى الطبيب. لا حاجة بكم إلى مزيد من الانتظار. أقصدوا راحةً عند مزار الوليّ هناك، فإذا حان الوقت، ذهبتُ في طلبكم... مهلاً، حاسِبوني قبلاً وسأدوّن أسماء من يدفع من الركّاب .

مشى يوسف في إثر كاتب المحكمة وسط جماعة صعدت ربوة انبسطت على صدرها مقبرة، وتفادى أن يدوس حجارةَ الأضرحة البيضاء لأن المساء لم يكن قد حلّ بعد. تمهّل يلمّ أنفاسه، وحين رفع نظره إلى دار الوليّ، رأى جمهرة من الناس مجتمعة على السطح. نكز الذي أمامه، فاستدار إليه كاتب المحكمة وقال : قد جاءوا يحتفلون بعيد مولده، ثم مدّ يده مصافحاً : مالك الرضيّ. وأنت؟ يوسف؟ عاشت الأسماء، أردف، بعد أن انتظر سماع بقية اسمٍ لم تأتِ.

فوق الفسحة التي تمتدّ أمام مزار الوليّ، وقف يوسف يشرف على جسد المدينة. تنشّق هواء حملت نسائمه برودةً مقبلة، وسرحت عيناه تزوران أنوار ماض بدات تلتمع في ذاكرته بحياء. فكّر في أنّ المدن كالناس، تختزن أياماً تظل تتكدّس فيها حتى تتحوّل إلى تلال تتخالط فيها الذكريات والروائح والأجسام.

سحبت يوسف من مشهد المدينة جلبةٌ صعدت خلفه لأناس بدوا وكأنهم يتهيّأون لاحتفالٍ ما. خمسة رجال بأثواب طويلة بيضاء استأذنوا الحاضرين، وضعوا دفوفهم جانباً، وأخذوا يفرشون بُسُطاً وسجاجيد مزركشة بالألوان. تنبّه بعض الحاضرين إلى ما يدور تحتهم، فنزلوا يشاركون في إقامة حلقة الذِكر.

راحت أيدٍ تحكّ الدفوف وتُعدّها للنطق، تنقر عليها بخفّة، ثم تعاود الحكّ، حتى اكتسى المكان في لحظات هيأة العيد وتحوّلت

الفسحة الخارجية إلى داخل لم يفلح تسيّبُه في العراء من تبديد ألفته. اكتمل كل شيء ووقف الجمع ينتظرون بدء الاحتفال.

تسلّق صوت أجشّ جانب الربوة ينادي على الركّاب بأن : «انزِلوا، قد حضر سائق الباص». تلفّت يوسف حواليه يستدلّ على وجوه من حضر معهم بين الوجوه. إلتمعت نظّارتان تعرّف إليهما بسرعة، فسار باتجاههما.

سلكت المجموعة الدرب إياها. نزلت الربوة، اجتازت المقبرة، إلى الميدان حيث يربض الباص.

على بعد أمتار، وقف السائق يمجّ لفافة تبغ وهو يراقب بطرف عينه أشكال ركّاب ما كان ينتظر الوقوع عليهم، فشعر بشيء من الرضى والامتنان إزاء معاونه الذي لم يُضِع الوقت سدى، خلال زيارته إلى الطبيب.

أمام باب الباص، رفع المعاونُ كيساً ورقياً كان قد دوّن عليه أسماء من دفعوا سلفاً أجرة الطريق، ونادى :

– الأخت خدّوجة الاخضر وابنتها الآنسة مريم!

تقدّمت المرأة وألقت نظرة خاطفة إلى السطح تتأكّد من ثبات أثاث غرفة النوم. سوّت لِحْفتَها بعد أن دفعت ابنتها أمامها، ثم صعدتا في الباص.

– سي حسن الصوفي!

كانت مشيته مترنّحة وخطاه كأنّ لا ثقة لها بالأرض التي تطأ. ألقى بين يدي المعاون بشتلة نخيل وهمس: إنها أمانة في عنقك، ثم

صعد وتدلّى نصفه من النافذة باسطاً ذراعيه. ناوله المعاون أمانته، فأجلسها على المقعد بقربه، ثم تهاوى كمن يستريح بعد جهدٍ وعناء. هزّ السائق رأسه ممتعضاً: ما كان ينقص إلاّ هذا السكّير!

– سي شاكر الصابوحي!

تقدّم شيخ ضرير دلّت عصاه عليه، فأسرع كاتب المحكمة يعينه على الركوب. دفعت؟ سأله المعاون. أجل، أجاب مشيراً إلى الكيس بإصبعٍ تُردّد : أنا مالك الرضيّ.

– سي عبد الفتّاح بن صالحة!

تعجّب السائق لمرأى مسبحته بأحجارها الكبيرة الصفراء وشرّابتها التي تصل حتى ركبتيه. وضعها عبد الفتّاح في رقبته كالعقْد، ثم رفع ذراعيه يمسك بمقبضي الباب. أزعجه ضيقُ أسفل الرداء، فأرخى يداً تلمّ طرف الثوب، ودخل.

– سي محسن القصّاب وعقيلته الأخت حسنيّة!

«سي حسنية وعقيلته الأخت محسن»! همست خدّوجة لابنتها وهي توارى في عبّها ضحكةً انفلتت منها، حين دخلت حسنية تُخفي وراء قامتها الفارعة قامةً دَقِرَت، فلم يكتمل نموُّها بفعل طارىء ما.

اقترب الرجل الذي صادفه يوسف في الحانوت، فاعترضه المعاون: لم أقع على اسمك بين الأسماء! معاوية المطماطي، أجابه. هاكَ المال. نظر المعاون الى وزن السكّر في يده: أهذا كل ما معك من متاع؟ أجل أجل، ردّد معاوية، حتى سمع يوسف من ورائه يقول: يوسف ويصعد.

دار المحرّك على صراخ حسن الصوفي : درّاجتي! فوافاه المعاون بخبر إيثاقها إلى مؤخّرة الباص.

— ٢ —

ضرب الهواء في النوافذ ينفخ أثواباً فضفاضة ويلهو بما خفّ تحريكه ولان. ترنّحت قنينة ماء فوق لوحة القيادة، فأصلح السائق من حالها. ولمّا رآها تعاود فعلتها، حسم الأمر بأن أنزلها ووضعها عند قدميه. ارتسمت عيناه في المرآة الصغيرة. كان عابساً عاقد الجبين.

غاص الركّاب في مقاعدهم يحلمون بما ستحمله إليهم وجهتُهم، وكانت مريم ابنة خدّوجة، أكثرهم عمقاً في الغوص. أغمضت عينيها لتفلت من رقابة أمّها، وراحت في رغباتها المغزولة بخيط حريريّ يحوك الدرب التي ستنقلها إلى الضفّة حيث تنتظرها شهوة العريس. أخرجت رأسها من النافذة تبرّد سخونة فيها، فتغلغلت يد الهواء تَمْسُد شعرها وتفكّ عقدة المنديل كي ترمي به الى الوراء. انفلتت خصل طويلة تبعط كأسماك أُخرجت لتوّها من الماء، فانتفضت خدّوجة واقفة كمن أصابها مسّ، وقامت تستعيد من الراكب جارها المنديل فيما هي تخبّىء بيدها ما افتضح وبان: انستري ستَركِ الله، قالت لابنتها، واستدرات متبسّمة بشيء من الاعتذار:

– عفواً يا أخي... سمعتك تقول إنك كاتب في العدل؟
– في المحكمة.
– ولكم شأن، في أمور الإرث والزواج؟

– لنا فيها شأن.

جلست خدّوجة والتفتت إلى الخلف تتابع حوارها مع مالك الرضيّ: قد أرسلك اللّه إليّ لأسألك النُصح. أنا من عائلة حكم الله على ذكورها بقصف الأعمار... ثم قطعت كلامها لألم في عنقها الملتوي، فوقفت تطلب من يوسف أن تستبدل مقعدها بمقعده لحين، إلى أن استقرّت بالقرب من كاتب المحكمة تواصل الحديث:

– أين كنتُ ؟
– كنت تقولين إنك من عائلة حُكم على ذكورها بقصف الأعمار.
– إرادة الله! يموت الذكور وتبقى الإناث. أرامل ويتامى ورزق يندثر من دون وريث...

تململ يوسف في جلسته لوقع كلمة طنّت في أذنيه كالنفير، فالتفتت إليه خدّوجة تطمئنّ على ابنتها التي جمدت قربه كاللوح، ثم أضافت:

– إبنتي التي تراها –حفظها اللّه– ستتزوج عمّا قريب. جهّزتها بغرفة نوم كاملة. أرجو أن تصل بسلام، خالية من أية خدوش. أرأيت المرآة؟ إنها أجمل وأثمن ما وجدت في السوق... المهمّ، أصطحبها إلى دار عريسها، أطمئنّ عليها، ثم أعود... أمتزوّج أنت؟

– لا.
– إرادة اللّه... ! أخشى أن يكون زوجها ابن حرام، فيستولي على ما تبقّى من أملاك أبيها ويرميها في الطريق... أليس من الواجب الاحتياط؟ أما في اليد من حيلة؟

إلتمعت عينا مالك الرضي بمياه إضافية، فسارع يبتلع اللُعاب الذي اندفع غزيراً تحت لسانه، ثم قال:

-الحلّ بسيط. لتكن العِصْمةُ في يدها!
- العصمة؟!
- أجل! زوّجيها تحت هذا الشرط... إذا لم يفُت الأوانُ بعد.
- وفحوى الكلام؟
- فحوى الكلام أن يكون قرار الحلّ والربط في يدها.
- يعني... تطلّقه هي حين تشاء؟
- بالضبط.
- ياه!! وهذا شرع وحلال؟

تلبّدت ملامح خدّوجة كمن ندِم على نقاش طال، كمن أخذ جواباً كان يتوقّع سواه أو مزيداً من الأخذ والردّ عليه، فلم يرضَ مالك عن ردّة فعلها الخائبة وتملّكته الرغبةُ بمواصلة إقناعها.

- إسمعي...
- داعيتك خدّوجة.
- يا أخت خدّوجة، إليك رواية أوردها العلماء، وهم أدرى منّي ومنك بما هو الشرع والحلال :

رجلٌ في طُلَيْطِلة يُدعى ابن الغاسل، اقترن بامرأة تُدعى عزيزة اشترطت عليه في عقد الزواج ألاّ يتخّذ زوجةً ثانيةً، وإلاّ حلّ لها الطلاق. وكان أن سافر الرجل إلى بلاد بعيدة حيث نكح واحدة هناك تُدعى شمس، فاشترطت عليه هي الأخرى ألاّ يغيب عنها أكثر من ستة أشهر، جاز من بعدها طلاقها منه. بعد مضيّ وقت، انكشف أمره لدى الاثنتين، فاتجّهت عزيزة -الزوجة الأولى- إلى قاضي طليطلة ترفع شكواها وتطالبه بتنفيذ الشرط. وبعد أخذ وردّ دام ردحاً من الزمن، حلّل لها القاضي الطلاق. ولأنه غاب عن شمس -الزوجة الثانية- متجاوزاً ما يتيحه الشرط، وقع له أن طلّقته هي أيضا...

- ومن رواه لك؟

– جاء ذلك على لسان ابن سهل...
– ابن سهل؟ سهّل الله أمورك وأموره يا بنّي.

ثم قامت تشكر وتستأذن بعد أن شعرت أن غيابها قد طال.

* * *

قام يوسف يجلس بجانب مريم...

تناهى إلى مسامعه صوت المرأة يقول : «يموت الذكور وتبقى الإناث، ورزق يندثر من دون وريث...». أصلح من جلسته هرباً من متابعة الحديث، لكنه ما لبث أن شعر بوطأة عينيها تنظرانه من الخلف كما لو كانتا جمرتين يصله وهجُهما. عدل عن الالتفات إلى ابنتها، مكتفياً بالشعور بحضورها وبرائحة شعرها التي عبقت بالغار. يدُها كانت في مرمى نظره. تحرّكها فترنّ أساورُ تنزلق على معصمها. رنين الذهب ويدها المحنّاة حملاه الى زخرف النوافذ في أشكباد...

سيف الدّين أُدعى، قال له التَرْجُمان... ثم عرض عليه أن يصطحبه إلى السوق بعد أن أتمّ يوسف المهمّة التي من أجلها جاء، فسارا صامتين إلى أن انسلاّ في أزقّة ضيّقة كانت الحيرة وجهتها، فالتفّت وتعرّجت وتشعّبت في كل اتجاه.

دملج، أقراط وحلى . عقود وخواتم. قلائد من الفضّة والخرز الملوّن، الزجاج والنحاس. أحجار، عقيق ومرجان. خيطان ومسابح، بسط مزركشة تتمدّد فوقها أغراض وبضائع، وروائح بخور وعطور تتسلّل من قوارير جهد الصنّاع في نفخ الروح في خزفها الرقيق الشفّاف. عنبر وياسمين. مسك وفلّ وليلك وقرنفل وبرتقال. بلّور. أباريق. فخّار. توابل. كحل. دبابيس وامشاط. أصبغة ومساحيق وسلالم معتمة تفضي الى بصيص أعين تتوارى خلف برقع النوافذ الخشبية المطرّزة. أصوات بجودة البضائع تنادي، ضحكات خفيفة ترنّ وتكرج فوق التراب، وخلفيات حمير تتحرك لتُفسح للمارّة، او لتطرد عنها الذباب...

إلى جانب سيف الدين، وقف يتأمّل حليّ عجوز افترشت بساطاً عرضت فوقه مناديلها المعقودة، فاختار سواراً وراح يبحث عن حُجّة تطيل به المكوث بعد. عبرت الى خياشيمه رائحةُ خبز طازج خارج لتوّه من بيت النار، وامتدّت يدُ امرأة برغيف لاهب مستدير. تناوله سيف الدين منها وقال: أرأيتها؟ تشبه امراتي. خذ وكُلْ ليتبارك الخبز... امتثل يوسف، وشعر بالحزن يزحف إلى نفسه فيما كان يكسر رغيفاً. قال سيف الدين: أتصدق؟ أشعر هنا أني بين أهلي وناسي، فسأله يوسف:

– لماذا ؟ ألست من هذه الديار؟

– آتٍ من بلاد الشام.

– ولك زمنٌ في أشكباد؟

– ثلاثة أعوام.

– فقط؟ وتتكلّم لغتهم بهذا الإتقان؟

– هي لغة أهلي وناسي... قدمت إلى هنا منذ سبعمائة عام –يضحك الترجمان– لدراسة الطبّ... كان أجدادي من السلاجقة التركمان الذين فرّوا من وجه المغول قبل سبعة قرون...

في أشكباد، وقع الترجمان في الغرام، فاستدعى عائلته لحضور حفل الزفاف. يعودون بعد سبعة قرون. يقطعون حروبا تتخثّر جثثُها تحت شمسٍ حارقة، من الشام إلى أشكباد، لكي تكتمل الدائرة، بعد سبعمائة عام ... يحكي سيف الدين عن لقاء أهله بخطيبته وكيف وجدوا أن التقاليد بقيت على حالها، العقليّاتُ والقلوب، ويروح يوسف يطالبه بمزيد من التفاصيل عن ملاحم أهاليه...

– إن مررتَ يوماً بالشام، اقْصُدْ عائلتي. قُلْ إنك قادم من طرف ابنهم، ويكون لك ما تشاء...

يومها، وعد يوسف نفسه بالعودة، حتماً، حين يحين الوقت. وها هو وقتُ عودة خدّوجة إلى مقعدها قد حان.

وقف يوسف يستأذن مالك الرضيّ بالعودة الى مقعده. قام يغلق النافذة، ثم أدخل رأسه في صلابة الزجاج. قُم وانزل يا سيف الدين. يكفي ما في الباص من حمولتي، قُم وانزل من الباص.

ينزل الترجمان، فيومىء له يوسف مودّعاً :

لك أهل يا سيف الدين!

ـ ٣ ـ

صحا حسن الصوفيّ...

انعطف الباص فجأةً، فمالت عليه شتلة النخيل تدغدغ خدّه. دفعها عنه أوّل مرة وعاد يشخر بأمان. عادت تداعبه بدلال، فشقّ عيناً وتبسّم لها كملاك. عدّل من جلستها على المقعد بجانبه، ثم مطّ جسده يتثاءب. وضع ساقاً على ساق وراح يتطلّع حواليه كمن يستكشف تفاصيل مكان دخل إليه للتوّ. استوقفه مرأى ابنة خدّوجة وأطال التحديق فيها، فتنحنحت أمها تزجر وقاحة عينه البلقاء. استدار عنها وهو يهمس : يا ستّار! عاد الى نخلته يتأمّلها برهة، ثم قال : عطشت؟ صبراً، ثوانٍ ونرتوي أنا وأنت.

تناول حسن قُربتَه يصبّ خمراً سكب على جذع النخلة بعضاً منه، ثم راح يغبّ. أنتِ الآن أحسن حالا، أليس كذلك... تريدين المزيد؟ حسناً، هاكِ جرعة بعد... آه، يا الله!

قامت يد شاكر الصابوحي المرتجفة تبحث عن عصاه، فترك عبدُ الفتّاح مسبحته الكبيرة الصفراء وناوله إياها. من يكون ذاك؟ سأل الأول، فأجابه الثاني: هو مخبول يتحدّث إلى نفسه ويشرب خمراً. انتفض الشيخ الأعمى يصرخ: العياذ بالله ! العياذ بالله ! وسمع حسن الصوفيّ ما يدور في جواره من حديث، فالتفت ناحيتهما

وتجشّأ بصوتٍ عالٍ، ثم قال: ما بك يا شيخي، أفي نفسك أن تتذوّق هذا العصير السحري؟

لاحظ السائق ما يجري وراءه ، فضغط على دوّاسة البنزين وجمح الباص فرساً أصيلة مدرّبة على السباق... وقع الكتاب من يد مالك الرضيّ، وانحنى يوسف يلمّه ويعيده إليه بعد أن ألقى نظرة خاطفة على العنوان. علا محسن القصّاب عن المقعد، ثم خبط عليه بفضل ساعد حسنية الذي اعترضه عند الصدر ليمنعه من السقوط. طاح جسدُ المعاون وكاد يرتطم بالزجاج الأمامي، لولا أن أمسك في آخر لحظة بإحدى قبضتي الباب.

لم يحسّ حسن بما يجري حوله، إلا حين ارتطمت القربة بشفتيه. مسح فاه بظاهر كفّه متحسّراً على ما اندلق وراح هدراً، ثم نظر إلى شتلته يطمئنّ إلى حالها ويُطمئنها عنه. استتبّت الأمور في نصابها، فهدأ بالُ السائق وعاد الباصُ إلى رتابة سيره. تنهّد حسن الصوفي حين أحسّ بعينيه بدأتا تزوغان، وغبط لمعاودته الدخول في سبات ودّ لو أنّه لا يبارحه البتّة.

لا يقوى حسن على الحزن، الحزن يقوى عليه. فوراء جيبه الداخلي الصغير، يتوارى قلب كسير. هذا ما ردّده ندماؤه مساء البارحة، عندما رأوا ضحكاته تختلط بدموعه. ما بك يا صاح؟ ما الذي يضحكك يا حسن، ثم يبكيك؟ روى لهم كيف بانت على شرفتها ذات نهار، كيف رشقها ببيت شعر، فكركرت بالضحك، ثم اختفت وراء ستارة بيضاء. رفعوا أقداحهم في صحّتها، فازداد بكاءحسن الصوفي. انتقل من الشارع الذي كان مقرّاً له، إلى شارعها حيث صار ينتظرها كل يوم. يؤلمه خواء شرفتها، حتى عادت وبانت له. وافاها ببيت الشعر نفسه، فلم تضحك، وإنما طردته.

قلْ يا أخي، ما الذي يبرّد قلبك ويكون لك ما تشاء. نظر حسن

إليهم من خلال دموعه وأجاب : يكفيني غرض منها، ذكرى، شيء يسير. رفعوه في كرسيّه ليلاً وحملوه إلى حيث دارها، ثم ولجوا حديقتها واقتلعوا شتلة النخيل... بات الليل معها في الميدان، وحين رأى الباص مغادراً، حملها وصعد فيه. تتربّع إلى جانبه الآن. غصباً عنها، صارت له، وضحكتها ترنّ في مسامعه كلّما مالت أغصانها الصغيرة، أو اهتزّ جذعها الريّان.

غبّ حسن جرعته الأخيرة دفعة واحدة. زاغت عيناه تماماً، فغاب عنه الباص ومن فيه.

— ٤ —

حاذى الباص غابة زيتون ارتعشت أشجارها وتنادت بصوت مسموع، فأبطأ السائق لمرأى تلك اللافتة المعدنية التي تحدّد الاتجاهات، وقد جعلت تدور على نفسها كأنّها تبحث عن أمر ما. حار في أمره وقتاً، ثم انعطف إلى قلب الغابة مذعناً للطريق التي أشار بها حدْسه المهنيّ، حائداً عن تلك التي جعلت تتلوّى وتضيق، تظهر وتغيب.

وجم الركّاب في مقاعدهم كأنّ على رؤوسهم الطير، بعد أن شعروا أنهم يثقلون على باص راح يشقّ دربه بصعوبة متزايدة، فصمتوا وجمدوا كي يخفّفوا عنه. أُقْفلت كل النوافذ وانحنت أغصان تخربش على زجاجها بعنف رغبتها في الدخول.

سار السائق ردحاً من الزمن فوق عجلات بدت كأنها ستتخلّع وتنفصل عنه لكثرة ما اشتدّ عزم العاصفة التي تشبّثت بالباص وراحت تزلزله ذات اليمنى وذات اليسار.

رأى السائق أنه من الحكمة التريّث، فترجّل يتفقّد الحمولة ويرى ما حلّ بها من الأضرار. همّت خدّوجة باللحاق به، فعجّل المعاون في إفهامها بضرورة البقاء في مكانها، ذلك أن مزاج السائق لا يحتمل الآن أي إزعاج. ثم نزل هو الآخر يعينه في شدّ الحبال وإيثاق ما انزلق وأوشك على الإفلات.

تطلّع الركّاب من النوافذ يتقصّون ملامح السائق علّهم يقرأون على

وجهه الخبر اليقين، فعاجلتهم العتمة تنتزع من أعينهم آخر بصيص نور. عاد السائق يجلس في مقعده بعد أن أوكل إلى معاونه أمر إطلاعهم على ما وصلت إليه المشاورات. وقف المعاون بينهم وقال: نتوقّف حتى تهدأ العاصفة، فنعاود المسير. تنفّس الركّاب الصعداء ورموا بتعليقات متفرّقة مفادُها: ونِعْمَ القرار! ما عدا خدّوجة التي قامت إليه تسأل بصوت خفيض، عمّا آل إليه جهاز ابنتها العروس.

خرج المعاون مجدّداً، فاستغرب البعض، لكنه ما لبث أن رجع بخُرْج كبير ألقاه من يديه وأغلق الباب. رأوه يشعل قنديل كاز رفعه وعلّقه في حلقة تدلّت من وسط السقف، فانطرح نور أصفر على هامات الركّاب الذين ازدادوا عدداً بعد أن جلست ظلالُهم على المقاعد بجانبهم، وتمدّدت فوق أرضية الباص.

كان المعاون يعمل كمن تمرّس منذ زمن بمواجهة مثل هذه الأوضاع، حتى تحوّلت فسحة الباص تحت لمساته إلى ما يشبه دارا ، تمّ إعدادها لاستقبال الزوّار. كانت يده تدخل في الخُرْج، ثم تطلع منه بأشياء: زجاجات برتقالية وسوداء، قناني ماء، سكاكر، حلويات ومكسّرات... يوزّعها على الركّاب الذين فلشوا بدورهم صُرَرَ الزاد ، وراحوا يقضمون ويقرقشون ويمضغون ويشربون ويبتلعون. وحين رآهم يمسحون أفواههم ويحمدون اللّه، قام يشعل قارورة غاز صغيرة ويضع على نارها الزرقاء إبريق شاي.

دارت أكواب صغيرة فاح لهيبها برائحة النعناع، وعلت أصوات تطالب بمزيد من السكّر. ردّ المعاون بأنه وضع في الإبريق كل ما كان لديه منه، وأنه للأسف، نسي التموّن بالمزيد. فانبرت له حسنية، زوجة محسن القصّاب، تُقسم بأنها لن تدفع ثمن شاي لا حلاوة فيه. وافقها الآخرون وشعر المعاون بخطورة الموقف، حتىً تبدّى له الحلّ في يد الراكب الذي جاء من غير متاع. اتجّه صوبه ثم انحنى عليه يقول : تعطيني كيس السكّر، ولا تدفع ثمن ما أخذت منذ قليل؟

نظر إليه معاوية المطماطي يتملّقه، ثم أجابه بصوت أراده أن يصل إلى مسامع الآخرين :

– أترى كيس السكّر هذا؟ أرسلتني زوجتي في طلبه منذ ما يزيد عن خمسة وأربعين عاماً. الآن، وبعد أن اشتريتُه، تريدني أن أهبك إياه؟

رفرف المعاون بهدبيه مستغرباً كلاماً لم يفقه له معنى، وضحك قسمٌ من الركّاب لإجابة اعتبروها نكتة، أو نوعاً مبطّناً من المزاح. قالت حسنية للمعاون: يعطيك بعضاً منه، تُبقي أنت على وعدك، وتضيف إليه ما ينقص خلال كامل الرحلة... ما قولك؟ حنق المعاون لهذا اللغط الذي قام من حوله، ثم أجاب: حسناً، حسناً... فكّوني من هذا المشكل. لعن الله الشاي وأبا الشاي!

استدار معاوية ناحية جيرانه من الركّاب بعد أن شعر أنه اتّخذ في نظرهم أهمية لم تكن في الحسبان، فقابلته خدّوجة بهزّة من رأسها وقالت: في وجهك كلام... استعدّ الجميع لحكاية مقبلة تنسيهم سوء العاصفة وتساعدهم على تقطيع الوقت إلى أجزاء يسهل تناولُها مع جرعات الشاي بالنعناع.

تنحنح معاوية المطماطي وقال: كنتُ في الدار استقبل زوّاراً جاءوا على حين غفلة. نتحادث ويحلو الكلام. قطع علينا الحديث نداءُ زوجتي تشكو نقصان السكّر لتطييب الشاي. استأذنتُ وانصرفت إلى الحانوت القريب، على أن أعود بعد وقتٍ وجيز. عندما وصلت، عجبت لانغلاق الحانوت في ساعة مبكرة، وحين استفسرتُ عن الأمر، قيل لي بأن الحانوتي أغلق بابه على عجل ومضى إلى عين الماء في الميدان. مشيت أبحث عنه وهناك رأيت جمهرة من الناس وقف في وسطها خطيب راقت لسماعه الآذان، كما لو كان إماماً يخطب في الناس: «ياعرب، ضاعت فلسطين! يا عرب، نعيدها بالجهاد»...! تلفّظ بكلامٍ اقشعرّت له الأبدان، كلام

يُدمي الوجدان. طرحتُ مفتاح البيت من يدي وقلت : واللّهِ لا أعود إلى الدار، حتى يتحرّر ما ضاع. وتبعته...

استولى الصمتُ على الركّاب، زاد من خشوعهم صوتُ الهواء يصفر في شقوق النوافذ. ارتشف معاوية جرعة شاي على عجل وتابع يقول:

سِرنا مجموعةً صغيرة من القرية وراء ذاك الداعية إلى الجهاد، حتى وصلنا إلى المكان الموعود من حيث ستنطلق الوفود إلى أبواب فلسطين. كنا نتكاثر كنهرٍ ترفده سواقٍ صغيرة تزيد من عزم جريانه ودفع مياهه. لا أطيل عليكم الحديث عمّا صادفناه من مصاعب عندما قطعنا الصحراء، وعمّن خلفناه وراءنا ممّن لم تحمله ساقاه على مشاق السير الطويل... رحمك اللّه يا جميل البغداديّ! هذا كان معنا. كلّما تذكّرت ما وقع له، تولاّني البكاء... خلصت مؤونتنا من الزاد والماء، وحلّ العطش فينا حتى تشقّقت الجلود وتفقّعت الشفاه كما لو كانت من الطين. انهار عدد منّا تحت شمس هاذية، وتطوّع آخرون للبحث عن المياه. ذهبنا ثلاثة وكان أن أشفق اللّه علينا، فوضع على دربنا بئر ماء. تقدّمتُ لأنزل في البئر، فسارع جميل البغداديّ يُقسِم بحياة أولاده بأنه إذا كان لا بدّ من النزول، فسيكون هو لا أحد سواه. كان الحبل مهترئاً وكان هو الأخفّ وزنا والأصغر قامة، فاضطررنا للإذعان. أوثقناه من وسطه، ثم دلّيناه. لكن الحبل انقطع فيه، فهوى المسكين عميقاً حتى سمعنا عظامه تتكسّر على جدران البئر...

صمت معاوية، ثم أشار إلى المعاون أن يأتيه بمزيدٍ من الشاي بعد أن جفّ ريقه وتمكّن الاضطراب منه. ارتشف سريعاً، ثم اردف يقول :

الحاصل يا سادة، عاودنا المسير بالرغم من العطش والجوع

والآلام وكنا قبل أن نخلد إلى النوم، نتحلّق حول مذياع صغير حمله أحد المجاهدين لتتبّع ما آلت إليه أخر تطوّرات المعارك هناك. نتنفّس الصعداء لطيب الأخبار ولجيوش عربية تزحف من كل حدب وصوب، فيدبّ فينا الحماس ونحثّ الخطى كي لا تفوتنا فرصة المشاركة في قهر العدو وتحقيق الانتصار.

لكن، عندما قاربنا على الوصول، أخذت جحافل أهل البلاد تطالعنا على الدروب. نساء وعجّز وأطفال خرجوا من بيوتهم ليلاً وهاموا في الطرقات لكي يحتموا من الرصاص والأعداء. بكاء وعويل وجرحى يملأون البقاع. نسألهم عن أحوال المعارك، عن خسائر المعتدي وبطولات الرفاق، فينظرون إلينا بانشداه كما لو كنّا قادمين من كوكب بعيد. يبثّ المذياع أناشيد حماسية تغلي لها الدماء في العروق، ويردّد أننا أصبحنا على قاب قوسين من الانتصار... الانتصار وسحق العدوّ، طحنه ومحاصرته ورميه في البحر، بينما اللاجئون يتوافدون بأعداد خيالية، يلاقيهم جيرانهم على الحدود بالأغطية والملابس والغذاء...

في النهاية، فهمنا أننا وصلنا إلى معركة لم تدر على الأرض، وإنما في المذياع. ويومها، حملت بارودتي وأقسمت : واللّه واللّه، لا ألقينّها من يدي حتى نستردّ ما ضاع! صارت «القضية» قضيتي، أتبعها من مكان الى مكان وأبذل في سبيلها أغلى التضحيات. إذا تركناها تضيع، فما الذي سيرويه عنّا التاريخ؟ ماذا نقول لأولادنا وكيف نبرّر خسارتنا وتخاذلنا أمام الأحفاد؟ هكذا، كرّست حياتي لها وجعلت أتبعها، الأردن، دمشق، لبنان، صحراء سيناء، وصولاً إلى بغداد... جهادي هذا لم يرُق للسلطات. زجّوني في السجن مراراً والبارحة بالذات كان خروجي منه. قلت لنفسي: تعبت يا معاوية. أنت الآن أهل لشيء من الراحة بعد كل ما بذلت من تضحيات. هذا لا يعني اني تخلّيت عن «القضية». أبداً! إنها حياتي وعرضي وشرفي. لكنّي اشتريت كيس

السكّر هذا، وقلت أعود لزوجتي بعد أن مضى على غيابي عنها ما يزيد عن خمسة وأربعين عاماً.

قفل معاوية روايته، فازداد صمتٌ لم تنجح تعليقات خفرة وقعت هنا وهناك من تبديد كثافته. وحدها الريح تابعت صفيرها غير عابئة بكل ما تناثر واندثر من كلام...

— ٥ —

قام المعاون يلملم أكواباً فرغت ويعيد إلى خرجه ما لم ينجح في بيعه، ثم انتحى زاوية أمامية وراح يُحصي غلّته لهذا المساء. وضع حصّة السائق على حدة، جمع نصيبه في محفظة وقام يطفىء القنديل. أشار إليه مالك الرضيّ أن اقتربْ، فتهامسا واستمرّ القنديلُ يضيء بنوره فضاء باص دخل معظم ركّابه في النوم، بفضل نقود كاتب المحكمة الذي عزّ عليه ألاّ يقوم بتقليب بضع صفحات.

ساد الهدوء، فارتخت أبدان أثقلها الشبع ومالت رؤوس تشخر بأمان. كان يوسف أيضاً، وبالرغم من عينيه المغمضتين، غير قادر على الرقاد. فكّر في ما رواه معاوية، وودّ لو يستطيع الخروج والسير طويلاً في ليل غابة الزيتون. الجميع راقدون ما عدا جاره. عرفه صاحياً من صوت تقليبه للكتاب. ماذا تراه يقرأ؟ تساءل يوسف نادماً لأنه لم يتحسّب لساعات أرق مماثلة. ثم التفت ناحيته يفكّ رموز سطور تحاشرت في طيّها كلمات لم تستقم لعينيه.

رفع مالك وجهه حين أحسّ بيوسف، ثم همس محرجاً : كتاب الحِسْبة لابن عبدون. هزّ يوسف رأسه مبتسماً وفهم كاتب المحكمة سريعاً بأنه لم يفقه معنى لما أعلمه به، فأضاف : وضعه ابن عبدون في القرن العاشر، وفيه يصف أحوال السوق في المدينة العربية آنذاك. رفع يوسف حاجبيه ممّا جعل محدّثُه يكتفي بهذه الإشارة

البسيطة ليوقن من أنه قد أيقظ في نفسه حشرية ما.

حكى مالك بصوت خفيض حريصاً على هدأة النيام، واستمع يوسف ممتناً لهذه السلوى المفاجئة التي جعلته ينسى نفسه وينهمك في غزل ملامح هذا الرجل النحيل الرقيق، يقاربه سناً ولحديثه رنين موسيقى قديمة مفعمة بالحنين :

كنت أدلف من باحة الجامع عبر باب واطىء، ثم أخذ ممراً ضيقاً يُفضي إلى حجرات متجاورة تنعقد فيها حلقات التدريس، فأمضي الوقت متنقّلاً بين حلقة وأخرى... وبالرغم من أن السوق كانت على مقربة، كان يندر أن أخرج، إذ ما حاجتي إلى الخروج حين أشعر بأني أتملّك نبض المدينة وأعرف كل حركة وخلجة فيها، وأنا على قدميّ لا أسير...؟ أقلّب الكتبَ والمخطوطات وإخالني «المحتسب» يدسّ العسّاسين يجيئونه بخبر كل شاردة وواردة... المحتسب؟ هو الذي يسهر على تنفيذ ومراعاة القوانين، فينزل إلى السوق على غفلة من أهلها، وإذا عثر على من زغل في صناعة او غشّ في بضاعة أو نقّص المكيال او بخّس الميزان، وعظه وضربه بالسياط، ثم وضع على رأسه طرطوراً مزيّناً بالخرز والعقود والأجراس وأذناب الثعالب، ودار به في أزقّة المدينة يجرّسه ويشهّر به بين الناس... لا محاكم ولادعاوى، وإنما هي العقوبة المعنوية والقيم الأخلاقية التي تصنع القانون. هكذا، كان الخارج يبقى منفصلاً عن الداخل، وعلى علاقة وثيقة به... اليوم ، اختلط الحابل بالنابل وتداخلت الأمور في بعضها حتى انتفى كل شيء...

من الميدان يتوسّطه الجامع، تبدأ السوق لتتفرّع إلى حارات وأزقة تحفّها الحوانيت وتحمي سقائفُها المارّة من المطر واللهيب... مصطباتٌ تتقدّم الحوانيت، ترتفع نحو المتر ويوازي سطحها أرضية الدكّان، يجلس عليها التجّار فيما الروائح تملأ الخياشيم... خلية نحلٍ تغلي... جزّارون وقُلاةُ سمك وقصّابون وشوّاؤون وهرائسيون

ونقانقيون وحلوانيون. عطّارون وصيادلة، صنّاع أشربة وكحّالون، مجبّرون وفصّادون وحجّامون. أقمشة وبزّازون وحاكة وخيّاطون وصبّاغون. الصاغة والنحّاسون والحدّادون، البياطرة ونخّاسو العبيد والدواب. الدبّاغون والخرّازون والبنّاؤون وصانعو الصابون وبائعو الزيوت والحطب والطوب والحصى والرماد. الصفّارون والقوّاسون والفخّارون، نسّاجو الحرير والقطّانون والكتّانون...

سوق لكل أهل صنعة، أزقة ضيّقة وحوانيت متحاشرة، شراجيب وشرفات، مساكن، حانات وفنادق. مسافرون وتجّار وغرباء. باعة ومارّة، دلاّلون ومنادون، شحّاذون وبهلوانيون وراقصون ومغنّون. أهل التخييل ومحرّكو الدمى، والسقّاؤون يندسّون بين الناس يبيعون الماء، بينما المباخر تتراقص وتتأرجح في أيدي بائعي البخور. عجقةٌ وطنين وهدير وقرع طبولٍ يدعو المارة إلى الحواة. زجّالون يلقون أشعارهم وقصّاصون يروون سيَراً وأمجاداً وبطولات. زحام ونعال تحفّ البلاط، تمشي، تقف، تتردّد، تعاين، تغادر، ثم ترجع لتحاور الموازين والمكاييل والأرطال والمثاقيل... خلية نحل تغلي. قفيرٌ يتكاثر فيه كلام الباعة المعسول في بضائع خفّ ثمنها ولو غلا، إزاء جودة صنعها وندرة موادها وجمال مظهرها وطيب مذاقها...

كانت السوق قلب المدينة النابض، شريانها الحيوي...مقدار هائل من الفوضى الظاهرية التي تخفي في عمقها دقّة هائلة في التنظيم ... يا اللّه ! كالعيد. كأجمل عيد وحكاية! واليوم؟ أين نحن ممّا كان... أطلت عليك الحديث، أعذرني. أتركك ترتاح.

* * *

أغمض مالك عينيه على وهن. ما الذي دهاه حتى كشف ليفلش روحه من دون خشية أو ورع بين يديّ هذا الغريب؟ أتعبه الكلام، فعاد يغوص في أفكاره على ضوء قنديل بدأ يشحّ من الكاز، ويمضي وحيداً في رسم ملامح مكان ينبسط كسرير وثير أمام ذاكرته المليئة بالكدمات.

أوّل خروج له من رَحم الجامع، كان إلى غرام أفقده السكينة وغبطة الهدوء. ترك الجامع حيث كان يحيا والمدرسة، وراح يتبعه حتى غاب عن العالم ومن فيه. متى كان ذاك؟ كأنه منذ دهر، منذ قرون، ولا ذكرى له إلاّ صفحة مزّقها ذات يوم من كتاب عتيق، فصارت تخرج لعينيه وتطيّب خاطره الكسير كلّما ألمّ به الحزن :

« ... وحدّثني أبو دلف الورّاق عن مسلمة بن أحمد الفيلسوف أنه قال: في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش في قرطبة، الموازي لدار الوزير ابن عمرو أحمد بن محمد جدير رحمه الله. كان مقدّم بن الأصفر مريضاً أيام حداثته بعشق "عجيب" فتى الوزير أبي عمرو المذكور. وكان يترك الصلاة في مسجد مسرور وبها كانت سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب "عجيب"، حتى أخذه الحرس غير مرة في الليل في حين انصرافه عن صلاة العشاء الأخيرة. وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ويلطم خدّيه وعينيه، فيُسرّ بذلك ويقول : هذا واللهِ أقصى أمنيتي والآن قرّت عيني، وكان على هذا زماناً يماشيه... »

غابت السطور عن عيني مالك بعد أن غلبه النعاس، فتنهّد عميقاً هامساً في سرّه : أصبت يا ابن حزم! واللّهِ صائب يا خير الناس... !

- ٦ -

أيقظت رائحة الكاز السائق الذي تمدّد فوق المقعد الكبير في مؤخّرة الباص. نظر إلى القنديل يخرج من فتيله خيط دخان أسود. رفع رأسه يتفقّد المعاون ليزجره على فعلته، فلم يبن له منه سوى رقبته المائلة، جزء من كتفه، وقدم خرجت عن حدود المقعد واستلقت من دون حراك.

نهض ويداه على كليتيه لوجع ناتج عن وضعيته في النوم، وأفلتت منه شتيمة باتجاه المعاون: أصبح في الثلاثين وله دماغ صبي لم يبلغ بعد! ثم حشر رأسه في زجاج النافذة الخلفية يتفقّد ليلاً مزّقته العاصفة وعاثت فيه الفساد. لا يجوز له كلّ هذا التأخر. ما الذي كان سيأخذه الى الشمال لولا هذا الوجع الذي يكسر ظهره. قال له الطبيب تحتاج إلى الراحة. سأله عن مدتها، فأجاب: لشهر أو لشهرين على الأقل. ضحك السائق في سرّه لهذا المزاح الثقيل، ثم تناول لائحة الأدوية منه. دفع وغادر. شهر أو شهران؟ ومن يُطعم الأولاد ويدفع الأقساط؟ حسناً إنه وجد ركّاباً يحملهم في درب عودته، هكذا يكون قد وفى كلفة الطريق وما أضاع وقته سدى. بودّه الوصول بسرعة ولا زالت دروب طويلة تفصله عن ألفة مناطق الجنوب. خطرت له خاطرة، فقام يمشي بتؤدة على رؤوس أصابعه. أدخل المفتاح في موضعه وأداره. فعرَ المحرك يتثاءب بعد خدر طويل. أعاد الكرّة وارتجّ جسد الباص كحيوان ينفض عن وبره النعاس.

جعل السائق ينقبض ويعضّ على شفتيه كلّما داس أغصاناً خلفتها العاصفةُ ورمتها تحت عجلاته. يفكّر في التوقّف ويهوله الانتظار والتأخّر، فيتابع التقدّم ببطء في غابةٍ تحوّلت إلى ما يشبه حقل ألغام.

بعد وقت دار بطيئاً وهو يطحن أعصاباً مشدودة كان المقود امتداداً لها، شعر السائق بالإعياء وبلا جدوى محاولته تلك. أطفأ المحرّك ونظر إلى عتمة تراءت له أقلّ كثافة ، كأنما هو بانتقاله هذا قد خلف وراءه الجزء الحالك من الليل، ليحلّ في ما هو أكثر خفّة وملاءمة للانتظار.

صدق ظنّه وهنّأ نفسه بشيء من الفخر، حين انبلجت تباشير نور تجلّى في بقعة من السماء بدا وكأن الفجر سيبزع منها ليعارك الليل ويمحوه. تكاثرت بقعُ الضوء بلمح البصر وخرجت إلى عيني السائق بمفاجأتين: كانت غابة الزيتون مستسلمة تماماً لذكرى الندوب العميقة التي خلفتها العاصفة الهوجاء، وكان الباص كئيباً في إطلالته على هاوية سحيقة يرتمي عند أقدامها بحر فسيح. أسرع قلب السائق يضرب بعنف حين تصوّر للحظات، جسد الباص يهوي من علٍ، يتكسّر فوق الصخور وتسيل منه الدماء. لم ترُق له الفكرة هذه، فلبطها وقام إلى المعاون يلكزه ويرسله للتقصّي، بعد أن أيقن أنه لا محالة قد أضاع الطريق.

كان المعاون لايزال في نعاس، لذلك فهو حين رأى ما رأى بعد خروجه من غابة الزيتون ونزوله إلى شاطىء البحر، ظنّه حلماً أو نوعاً من غشاوة البصر والتشويش. طالعته كتلةٌ من الأخيلة السوداء وقد انتصبت في مواجهة بحر مسترسل في مداه. أخيلة تسمّرت أقدامها في الرمل وأعينها في الأفق، بينما ارتفعت سواعد ضامرة قلتْها الشمس وقدّدت عودها، تمسك برؤوس بدت وكأنها ستهوي تحت حمولة القلق والانتظار. هذه أطياف نساء، ردّد المعاون في

نفسه، فما الذي أخرجهنّ عند هذا الصباح؟

سار المعاون بخطى حثيثة منصاعاً لحشرية شدّته من أذنه وجرّته لاستكشاف ما يجري ولا يفقه معناه، وراح يقترب من صوت نواح بدأ يتّضح شيئاً فشيئاً، حتى طغى على صوت الموج. جمد المعاون في أرضه واعتراه الخوف. إلى أين جاء وما دخله في كل هذا؟ لِم لا يعود على أعقابه، أو يبحث بالأحرى عن أنسيٍّ يستدلّ منه على الطريق؟ ثم سمع نفسه يتمتم : باسم الله الرحمن الرحيم... لكنه، ما ان استدار ليبدّل في وجهته، حتى وجد جسدَه يرتطم بحجمٍ وقف في الخلف شبه ملاصق له. انتفض مذعوراً وانسحبت الدماء من عروقه لتتجمّع في أعلى رأسه، حين رآها امرأة تحملق فيه بعينين لا تعبير فيهما. اعتذر وارتبك ولم يُطعه صوته، لكنه ما لبث أن اطمأنّ يسيراً، حين سمعها تتلفّظ بحروف رتّبها في جملةٍ مفادها : عمّا تبحث أيها الغريب؟

روى «الغريب» قصّته بإيجاز فيه الكثير من بلاغة القلق والمفاجأة والاضطراب، ثم استجمع قواه يسألها بدوره عن طبيعة ما سمعه ورآه. أشارت إليه بأن يتبعها، ثم تقدّمته ومشيا. خرجت كلّ نساء قريتها لانتظار عودة آباء وأزواج وإخوة وأبناء ركبوا البحر عصر البارحة، ففاجأتهم العاصفة ولمّا يرجعوا بعد. هي أيضاً جاءت تترقّب عودة زوجها، مع أنها موقنة من أن البحر أخذه، لذا فلا جدوى من الانتظار... إسمع أيها الغريب، أدلّك على الوجهة الواجب اتّخاذها، شرط أن تحملني معك إلى أهلي كي أضع وليدي هناك. ما عاد لديّ متّسع من الوقت، يكفي أن تقرّبني مسافة أنزل بعدها وأتابع سيراً على الأقدام... نظر المعاون إلى بطنها المنتفخة تسير أمامها بجهد، فتولاّه الإشفاق. عسى السائق يوافق على حملها معهم قسماً من الطريق.

دخلا إلى حقل الزيتون واتّجه المعاون إلى حيث يقف الباص، إلاّ

أن يدها استوقفته لكي ينعطف معها قبلاً إلى حيث خبّأت كيس زيتون: أبيعه في قريتي وأحصل على ما يسترني ويستر عري وليدي اليتيم. تبعها المعاون مستغرباً، إذ ما الذي يؤكّد لها بأن زوجها لن يعود؟ أهو الحدْس النسويّ الذي يستشهد به الجميع؟ إلى أن قطع عليه تساؤلاته حجم ووزن كيس الزيتون، فعاود السير وراءها لاهثاً ينوء تحت حمل ثنى ركبتيه ودكّ كتفيه.

حين وصلا، كان الركّاب قد ترجّلوا وانتشروا بين جذوع الأشجار. حديثهم كان العاصفة وخاصة تلك الهاوية السحيقة الفاغرة الفاه، حتى رأوهما مقبلين، فانشغلوا بعودة المعاون تصحبه امرأةٌ ما.

إتّجه المعاون صوب السائق مباشرة لا يعير انتباهاً للأسئلة التي انهالت عليه، فانتحيا جذع شجرة لدقائق، ثم عادا.

صعد السائق إلى مقعده والمعاون إلى السطح. نادى على أحدهم كي يعينه في رفع الكيس، وحين سأله ذاك عمّا فيه لدبق لزج التصق بيديه، أطلّت المرأة الحامل من النافذة حيث استقرّت وهتفت :

- فيه زيتونٌ أسود. فيه زيتون... !

— ٧ —

في كفّ يوسف حبّة زيتون.

صغيرة، فجّة وسوداء. مكتملة الاستدارة لولا انحناءة خفيفة عند زاويتيها. ملتمعة القشرة وناعمة. «زيتون عصفوريّ» قال له مالك، فتفادى يوسف النظر إليه مقفلاً كفّه. لم يكن راغباً في الكلام، مع أنه استساغ تسمية خرجت إليه بتشبيه ممعن في الالتباس، فتساءل : أسُمِّي هكذا لتشابه في الشكل، أم كنايةً عن رغبة العصافير فيه...؟

حين كان صغيراً، حدّثه المعلّم عن جبل الزيتون وعن ذاك الذي دخله قبل أن يسلّموه. قال له كان يعرف، ففكّر يوسف بأنه هو أيضاً قد عرف. تابع المعلّم : كان حزيناً. قال لرفاقه نفسي حزينة حتى الموت. اسهروا وانتظروني. وحين عاد وجدهم نياماً فقال : أما استطعتم أن تسهروا بعد، ساعة أخيرة معي بعد ، ساعتي الأخيرة؟ قال يوسف: كان بردانَ، فأخذه المعلّم في أحضانه يدفّئه. قال يوسف : لم يكن حزيناً، كان يشعر بالبرد. لماذا تركوه وحده؟ وأبوه؟ أجاب المعلّم: لم يكن له أب. قال يوسف : بلى، لكنهم قتلوه. قال المعلّم : لِمَ ترتجف، هل أنت خائف؟ لا، أجاب يوسف، أشعر بالبرد...

على حبّة زيتون تجمّرت فأحرقته، فتح يوسف كفّه. كان النهار قد حلّ واضحاً في سماء فاضحة الزرقة، وكان الباص يتابع سيره العصيّ بين حقول الزيتون. يوم حارّ كذلك الذي سبقه، ردّد في نفسه، فيما كان جسده يرشح ماءً يندى له جبينه المعقود، ظهره الملتصق بجلد من النوع الرخيص، وإبطاه المقفلان في وجه هواء تخبطه النافذة به. يرشح ماءً كثيراً ما يلبث أن يتحولّ إلى برودة تذكّر بالثلوج. هل أنت مريض، سأله مالك، إليك عباءتي، لفّ نفسك بها جيداً. مهلاً، سأغلق النافذة. لا بأس عليك. لا بدّ وأنه تعب السفر وإرهاق السهر الطويل. أغمض عينيك وحاول أن تنام... امتثل يوسف. لم يكن راغباً بالكلام. أغمض عينيه متقوقعاً على نفسه كمن يحضن البرد الذي فيه.

سوّى مالك نظّارتيه كما حين يأتي عملاً يُشعره بالارتباك والإحراج، ثم حشر نفسه ناحية الممرّ لكي يترك لجاره متسّعا من المكان. أسند مرفقه إلى يد المقعد بعد أن ألقى الجانب الأيسر من وجهه على باطن كفّه، فانكشفت لعينيه فسحة ترتمي فوقها الدربُ التي انحرفوا إليها. ما أشقى من يحيد عن الطريق، أسرّ مالك لذاته، أخيراً وجد السائق الدرب التي ستنسيني أروقة المحاكم تعجّ بالشاكين والظلاّم... سأنسى العدالة وميزانها تتّزن كفّتاه بحسب ما يطيب لهما... شهرٌ كامل من النسيان. فرصته السنوية يقضيها في قريته في الجنوب، قبل أن يشتدّ القيظ وتشتعل نيران الصيف. ستفرح أمه به. تسلخ ذراعيها عن العجين وتركض لتحتويه، تعتذر وتمسح بمنديلها ما علق على ثيابه من طحينها. لا يذكرها إلاّ منحنيةً فوق العجين، تفوح برائحة الخبز والوقيد والدخان. متى تتزوّج يا مالك؟ إخوتك كلّهم استقرّوا وأنت أصبحت في الأربعين. وجدتُ لك أبهى عروس، فيخفض مالك عينيه مختبئاً وراء نظّارتيه المتسختين. تنحني فوق قمصانه ترفوها، ولا يقدر هو على أسئلتها وعلى صمتها الذي يوسع ما فيه من الفتوق...

كانت عينا مالك لا تزالان في الطريق حين عبرهما طيف اختفى من أمام ناظريه ليعود ويظهر في الزجاج الخلفي. تعلّق الطيف بالسلّم المُثبت إلى مؤخرة الباص وراح يخبط بيديه وهو يتلفّت إلى الوراء. قام مالك إليه مسرعاً وتنبّه الركّاب إلى ما يجري ومعهم السائق الذي أبطأ في سيره يهمّ بالتوقّف. استمر الشاب يضرب الزجاج وراح يصرخ بضرورة الإسراع قبل فوات الأوان. حار السائق في ما يفعل، وتجمّع الركّاب في الخلف. بعضهم يهمدر بوجوب مواصلة المسير، والبعض الآخر بالتوقّف توّاً وفي الحال.

حُشر مالك في واجهة الزجاج تعصره أجسادٌ تلاحمت وجعلت تتزاحم لكي تتمكّن من الفرجة، فقابل وجهه المعوس وجهَ الشاب في الخارج، ممّا جعل عينيه تصابان بحَوَل منع عنهما الرؤية الواضحة. ثبّت كاتب المحكمة رجليه في الأرض ودفع بكل ما أوتي من قوة إلى الوراء، إلاّ أنه لم يُوفّق إلاّ بإدارة وجهه جانبياً كي لا يتحطّم زجاجُ نظّارتيه على الزجاج.

انحرف الباص، فظهرت جماعةٌ من بين أشجار الزيتون وراحت تجري محاولة اللحاق به. رأى السائق في مرآته الصغيرة رجالاً ونساءْ يلوّحون بالعصي والفؤوس والمعاول وما طالت أيديهم من حجارة وقضبان، ففهم بأن الأمر لا يحتمل التفكير. وبما أن هذا الشاب المسكين المطارَد قد التجأ إليه في لحظة يأس، وبما أن المروءة تقتضي حماية المستضعَف والمحتاج والمغلوب، قرّر أن يرخي اللجام ، فدفع بعجلاته للدوران بأقصى سرعة ممكنة وهو يلعق شفتيه بلسانه .

جمح الباص فتراجع الركّاب كتلةً واحدة انفرطت لحمتُها فوق المقاعد وعلى ما في الأرضية من فسحات. ركض المعاون يحمي بطن المرأة الحامل، وراح حسن الصوفي يقهقه قافزاً فوق مقعده،

ضارباً على فخذه كفارس خيّال يلاحقه الأعداء وهو يحيط حبيبته بذراعه مخافة أن تسقط فتُتخلّع أعضانها اليانعة. كانت خدّوجة لا تزال في الأرض تنتحب ويعلو صراخها: أوقفوا الباص ! يا ويلي، المرآة! الأثاث! يا ويلك يا خدّوجة ضاع مستقبل البنت! مريم تطيّب خاطرها، وهي تعاند ذراع معاوية المطماطي التي امتدّت إليها تسعى إلى مساعدتها على الوقوف... عاد مالك إلى مؤخّرة الباص بصعوبة ليراقب تطوّر الأحداث، واندفع الآخرون إلى جانب السائق يزيدون من حماسته ويهنّئونه على شجاعته وإقدامه وكل ما اتصّف به من الأخلاق الرفيعة والمزايا والصفات.

ارتاح الجميع لمرأى المجموعة تبتعد وتتحوّل إلى بقعة صغيرة طغى هديرُ المحرّك على جلبة أصواتها، لكنهم ما لبثوا أن فوجئوا بها مجدداً وقد راحت تقضم المسافة التي تفصلها عن الباص بسرعة، كأنها لا تجري بل تطير. ما الذي جرى؟ ارتسم السؤال على وجوه الركّاب عندما راح الباص يبطىء فبدا وكأنه، عوض أن يتقدّم، يتراجع. غير أنهم ما لبثوا ان فهموا حين تكشّفت لعيونهم دربٌ وعرة امتلأت بالحفر والوحول، بل بالمستنقعات.

هبّ عبد الفتّاح بن صالحة وراح يلوّح بمسبحته الكبيرة الصفراء مطالباً بالصمت لرغبته في الكلام. التفت الآخرون إليه وتعلّقوا بفمه علّه يُخرج حلاً يقيهم شرّ ما يقبل إليهم يتقدّمه الرعيد والوعيد. ساد الصمت كاملاً مكتملاً، فقال عبد الفتّاح : نتوقّف للحظة ولا ندعهم يمسّونه بسوء، حتى نعرف سبب الخلاف. فقاطعه معاوية المطماطي حانقاً ساخراً : ونمكّنهم منّا جميعاً؟! ونعْم المشورة! ألم ترَ معاوَلهم والفؤوس؟ فلنسلّمهم إياه ونعتذر عن ردّة فعل سبّبها هول المفاجأة وسوء التقدير...

حين سمعت حسنية كلام معاوية، دفعت محسن القصّاب زوجها جانباً وتقدّمت تقول : بارك الله فيك، هكذا تكون الرجال! يا عيب

الشوم، نسلّم شاباً لجماعة كي تستفرد به؟ وضرب محسن من ورائها كفّاً بكفّ يردّد: يا عيب الشوم ! خلتِ الدنيا من الرجال! فردّ معاوية : وما أدراكم ما فعل؟ ألا يكون قد ارتكب جريمة شنعاء حتى يلاحقه هذا العدد من الناس؟ فتح عبد الفتّاح فاه كي يتابع الكلام بين ركّابٍ انفرزوا إلى فريقين، فما كان من السائق إلاّ أن فرمل بحدّة حاسماً النزاع. رأوه ينتحي بالباص جانب الطريق، يفتح الباب ويترجّل متّجهاً إلى حيث تعلّق الشاب. همّ هذا الأخير بالهرب، فالتقطه السائق وعاجله بالقول : لا تخف. أنت في حمايتي، فابقَ بلصقي ولا تنبس بحرف.

وقفت الجماعة تلهث وتلمّ الأنفاس على بعد أمتار من السائق، وقد التفّ قسمٌ من الركّاب حوله مستعدّين للدفاع عنه وعن أنفسهم إذا ما وصل الأمر للعراك بالأيدي أو لأي نوع آخر من الاشتباك. انحنى حسن الصوفي يلملم حجارة وحصى راح يوزّعها على رفاقه المشدوهين بنشاطه المفاجىء وبالصحوة العجيبة التي حلّت به من دون سابق إنذار.

لحظاتٌ من المواجهة بالنظرات، باشر السائق من بعدها الكلام فقال : لا نعرف ما هو سبب الخلاف، ولكن أُقسِم بشرفي وعرضي أني لا أسلّمكم من التجأ إلى حمايتي ولا تمسّون شعرة من رأسه، إلاّ على جثّتي!

انفرد رجل عن الجماعة واقترب من السائق يربت على كتفه ويقول : بارك الله في قوم شجعان، ثم استدار أمراً بإلقاء ما في الأيدي واقتعاد الأرض كبرهان على حسن النوايا والرغبة في الحوار.

اطمأنّ السائق إلى هذه المبادرة وشعر بالاعتزاز حين لحظ أنه يسيطر على زمام الأمور، فمال على حسن الصوفي هامساً

بضرورة رمي الحجارة والحصى أيضاً. امتثل حسن ومعه الآخرون، وتحاشر من بقي في الباص في النوافذ، يتابعون ما يجري ويعلّقون على سير الأحداث...

قال الرجل : المظاهر خادعة، فما نحن إلاّ قوم مسالمون نتّقي الله ونعمل بمشيئته وأقوال رسوله عليه الصلاة والسلام. إليكم حكايتنا واحكموا أنتم بما ترونه من الصواب ونحن لحكمِكم منقادون. التفت إلى جماعته يسائلها الرأيَ، فهزّ الرجال رؤوسهم وخفضت النساء عيونهنّ وبدا الجميع موافقين.

تابع الرجل يقول : نحن من قرية منّ الله عليها بحقول شاسعة من الزيتون. مزارعون لا همّ لنا سوى الأرض. حياتها حياتنا ومماتها مماتنا. في موسم القطاف، نتعاون في جمع غلّتنا. لنا منها مؤونة الشتاء وما يعود به علينا بيع الزيتون والزيت والصابون. والزيتونة شجرة أصيلة ومعطاء، حتى لو كان موسمها عاماً على اثنين. في عام، يغمرنا الخيرُ ولله الحمد والشكر، وفي التالي نقتصد متحسّبين لغدرات الزمان، فنشتغل الأرض ونكرمها لكي تقابلنا الفعل وتبادلنا بالمثل. هكذا كان أجدادُنا يفعلون من قبلنا ونحن بهم مهتدون. لكن، يا أهل الحلال، أربعة مواسم والأرض تأخذ ولا تعطي وأطفالنا أمام أعيننا من الجوع يتضوّرون! في الموسم الأول، قلنا هي صيبة عينٍ حاسدة، فرُحنا إلى الحقول نعلّق في كل شجرة يداً لفاطمة وخرزة زرقاء، ثم انتظرنا. جاء الموسم الثاني وبقيت الأشجار خرساء. قيل لنا بخّروها وأقيموا شعائر الصلاة ورشّوا الآيات هنا وهناك، فامتثلنا وانتظرنا. كنا نتعاون في مؤاساة الأرامل واليتامى، ومساعدة المحتاج. نتقاسم المدّخرات والمؤن والشقاء والانتظار، حتى اقبل الموسم الثالث ونحن على الصبر ما عدنا قادرين. غير أن أشجارنا استمرّت بكماء عمياء، فأصابنا الذعر وعرفنا أن ما يحصل لنا يتجاوز الحظّ العاثر والصدف السيّئة ونزق الطبيعة، وأننا ضحايا لعنة انصبّت على

رؤوسنا، فتحجّرت مآقينا وجفّت فيها الدموع.

سكت الرجل يداري انفعاله ويمسح العرق المتصبّب منه، ثم أضاف :

وكان أن جاء يوم مرّ في قريتنا عرّاف، فرأى قلوبَنا موصدة الأبواب. سألَنا عمّا أصابنا، فوافيناه بسوء الأخبار. ذهب إلى حقولنا وتبعناه. اقترب من أشجارنا يلصق أذنه على الجذوع، ويهزّ رأسه كأنه سمع وفهم واستعاظ. أمضى يومين كاملين على هذه الحال، ثم جمعنا وقال : لا بأس عليكم. أشجاركم مصابة بنوع من السوداء، وما عليكم سوى بتنظيم الأفراح! تركنا بيوتنا ورحنا إلى الحقول نقيم فيها ليل نهار. نرقص ونغنّي وندقّ على الطبول، فلم يرقّ الزيتون لحالنا، فيما كان الموسم الرابع يقترب ونحن من اليأس نذوب. بعد أسبوعين، عاد إلينا العرّاف يطمئنّ إلى حال الحقول، فوافيناه مرة أخرى بسوء الأخبار. قال: زيتونكم حزينٌ جداً. داووه بألحان عذبة، لا بدقّات الطبول!

أخذتنا الحيرة. هل منكم من يجيد العزف يا رجال؟ هل بينكن من تجيد الغناء يا نساء؟ ودبّ الهلع فينا حين لم يأتِ أيٌّ منّا بجواب. قال أحدنا : أعرف راعياً يعزف على المزمار، يسوق قطعانه إلى نواحي قريتنا في الصيف والشتاء. مضينا إليه ورجوناه، فمانع في البدء وحين رأى حجم يأسنا، قبِل الرجاء... ها هو يختبئ وراءكم، فاسألوه إن كنت أزيد أو أنقّص، أو لا أقول حقيقة ما جرى؟

إلتفت السائق إلى الشاب عابساً، فوجده شاحباً موهناً لا يقوى على الكلام. عاد إلى محدّثه يطالبه بمواصلة الرواية، فتصبّر الرجل وأضاف :

اصطحبناه إلى حقولنا، فأقام بيننا يعزف أجمل الألحان. راينا

الأشجار تبتهج لسماعه، والأوراق وقد عادت إليها الحياة. استبشرنا خيراً وقلنا : أخيراً، أنعم الله علينا ولصلواتنا قد استجاب. لكنه البارحة، قرّر التوقّف. رجوناه وتوسّلنا إليه. نحنا وبكينا وانتحبنا، دون جدوى. ألقى المزمار من يده حين رأى باصكم عابراً، وقام يجري وراءه، فحملنا معاولنا وفؤوسنا وما طالته أيدينا من دون تفكير، وركضنا في أثره حتى تعلّق بالسلّم وابتعد به الباص... هذه هي حكايتنا، فبِمَ علينا تشورون؟

عقد السائق حاجبيه مرفرفاً بهدبيه لشعوره بخطورة الموقف وأهمية القرار الواجب اتّخاذه. هذه هي إذن قصّة هذا الشاب؟! ظالم ويلعب دور المظلوم؟! مساكين، ولا تجود عليهم بعزف على المزمار لتنقذ حقولهم وحياتهم؟ انتفض الشاب إزاء لوم السائق ولهجته المؤنّبة، وقال وهو يوشك على البكاء : اسألهم منذ متى وأنا أعزف لزيتونهم؟

قال الرجل : أجل، مضى عليه خمسة عشر يوماً بالتمام.
أردف الشاب : واسألهم كم ساعة كنت أعزف في اليوم على المزمار؟

فأجاب الرجل محرجاً : في الليل والنهار...

قال الشاب : حرام عليكم! تنقذون زيتونكم وتقتلونني أنا؟ هذا ظلم وإجحاف ! يا أخي، ما عدت قادراً على تحريك شفتيّ. خذّاي تخدّرا وأصابعي تشنّجت وانتشرت فيها الثآليل وجيوب الماء. ثم، ما ذنبي أنا إن كان زيتونهم مريضاً؟ أهذا جزاء الخير والمعروف؟ يلاحقونني بالمعاول والفؤوس كما لو كنت قاتلاً أو سارقاً حقيراً، أو شخصاً أنزل بهم الهوان؟

هدّأ السائق من روعه وطيّب خاطره: لا بأس عليك، إهدأ ولا

يكون إلاّ ما يرضيك. ثم ابتعد مشيراً إلى فريقه بالاقتراب منه. تقدّم أعضاء الفريق وتحلّقوا حوله يتشاورون ويتهامسون في من يكون الظالم والمظلوم، حتى انقسموا هم أيضاً إلى حزبين: حزب يقول بضرورة إطلاق سراح الشاب وإعطائه حرية تقرير مصيره، وآخر يشفق على الجماعة مستنكراً هول ما ستؤول إليه إذا غادرها عازف المزمار. استمع السائق مخفض الرأس، ثم انسحب عائداً إلى حيث تقف الجماعة وقبالتها الشاب.

قال السائق : إلينا احتكمتم وبمشورتنا أقسمتم بأنكم ستعملون. نحن نرى أن يرجع الشاب معكم فيتابع السهر على حقولكم والاعتناء بأشجاركم حتى يدفع عنها كلّية الحزن والبوار...

هلّلت الجماعة فرحة وهبّ أفرادها واقفين يتصافحون ويتعانقون. قطع السائق عليهم بهجتهم وتابع يقول : لم أُتمّ حديثي بعد. تصحبون الشاب لكن، تتّفقون وإياه على ساعات العمل والراحة، فيعزف خلال ستّ ساعات يرتاح من بعدها، فيأكل ويشرب وينام لستّ ساعات مقابلة، وهكذا دواليك حتى ينقضي اليوم. أيضاً، تهتمّون بقطعانه وتمنحونه بيتاً يقيم فيه. ومن يدري، ربما قرّر البقاء بينكم والاقتران بإحدى بناتكم فينجب لها أولاداً يعلّمهم العزف على المزمار...

ضحك الجميع فاحمرّ وجه الشاب، وزجر السائق ابتسامة ظهرت عند زاوية فمه غصباً عنه. طفق حسن الصوفي كعادته، يقفز ويضحك ويرقص على زغردة نساء الزيتون، وأسرعت حسنية ترفع يدها إلى فمها هي الأخرى، مطلقةً لسانها على مداه لتردّ بزغردتها تلك على النساء، وخاصةً كي تكيد الركّاب الذين ظلّوا محتبسين في الباص.

تقدّم الرجل، زعيم الجماعة، وصافح شاكراً مالك الرضيّ، ثم

المعاون، حسن الصوفي، محسن القصّاب وعبد الفتّاح، فأبقى عبد الفتّاح يد الرجل في يديه وقال بصوت مرتفع : نرجو أن تنفرج أحوالكم فلا تغادر البسمة حقولكم وتتّقون غدرات الزمان! قال هذا ملتفتاً إلى حسنية التي وافته بابتسامة قبل أن تغادر قامتُها الفارعة الطريق إلى الباص. تلفّت رجل الزيتون حواليه يبحث عن السائق، ولمّا وجده أمام مقوده يحثّ الركّاب على الإسراع، اقترب منه وخبط على بابه متمنّياً له السلامة والتوفيق، مردّداً عبارات الشكر والامتنان.

وقف المعاون بجانب السائق الذي عاود المسير، ينتظر تعليقاً على مجمل ما جرى من أحداث، فسمعه يقول : واللّهِ لن أتوقّف ثانية واحدة بعد الآن، حتى ولو جاء أبي المرحوم ورجاني أن أُصعده معي في الباص !!!

— ٨ —

علّق عبد الفتّاح مسبحته الكبيرة الصفراء في عقفة عصا شاكر الصابوحيّ، عاقداً يديه ليستريح في استعادة ابتسامة حسنية وفمها المكتنز الذي انطلق بالزغردة.

تجلس عن يمينه، إلى الوراء قليلاً، في صفّ المقاعد المقابل، يفصله عنها هذا الشيخُ الأعمى وزوجُها، ذلك القزم القصّاب. إمرأةٌ فيها فحولة عشرة ثيران، ردّد عبد الفتّاح في سرّه، وشعر بهزج طبول تقرع في شراينه وبنار تمتدّ من رأسه لتتجمّع عند أسفل بطنه. فارعة الطول، ناهضة القامة، ناضجة ولكن من دون ارتخاء، في المنتصف الأوّل للعقد الثالث أو ربّما أكثر بقليل، لكن ما همّ ما دامت على هذا التماسك في الاستدارات. التكافؤ معدوم بين مساحات جسدها الفسيح وقامة زوجها القزم الضئيلة. امرأة كهذه يلزمها عشرة رجال! وعبد الفتّاح هو الأدرى بخفايا النساء وبالدهاليز الواجب قطعها للوصول إلى رغباتهن المنعقدة تحت طبقات التستّر والممانعة. يحبّهنّ ولا حيلة له، حتى العجائز منهنّ يحزر فيهنّ الصبيّة التي كنّها تتوارى ملامحُها خلف أعينهنّ الدامعة التي ودّعتها اللذّات. النساء خزائن بأقفال مستعصية متى أتقنتَ فكّ رموزها، انفتحتْ على مغاور تفيض بالأطايب والكنوز. فيهنّ يجري ماء إذا ما ولجتَ سرّه، امتلكت الشباب ودفعت عنك الشيخوخةَ وأمراض الروح...

مهلاً يا عبد الفتّاح، مهلاً يا روح الروح. لا تنسَ أنك في باص وأن حواجز عديدة تفصلك عن مبتغاك... يدير عبد الفتّاح رأسَه ويضعه في الطريق. كيف يصل إليها قبل أن يحترق في رغبته المتّقدة، قبل أن تسرقها منه الطريق؟ يدفع صورتها عنه، فتعود وتتراءى له في دكّان زوجها القصّاب...

تنهض حسنية من الفراش بعباءة خفيفة تفضح أكثر ممّا تستر. تلمّ حسنية شعرها المنسدل الكثيف تلتمع خصلاتُه بالصحّة والعافية والنشاط... يرى عبد الفتّاح حبّتي رمّان تنهضان، تتبعهما إليتان مكتملتا الاستدارة وردفان عكّان ثقيلان. تخرج حسنية من الدار إلى الدكّان، ترتجّ لدعساتها أرضيةٌ يتعفّر فوقها التراب. تنحني حسنية إلى الذبيحة ترفعها. تتعارك حسنية والعجل المسلوخ، تحيطه بزنديها البضّين لترفعه وتعلّقه في حلقة تدلّت من السقف. يلتصق اللحم الحيّ الطازج النابض بلحم حسنية الطريّ ضاغطاً نتوءاتها المتكوّرة الندية. تتمهّل قامةُ حسنية في حركتها تلك، وتستسيغ شعوراً بالانتشاء. تتلوّى حسنية ويخبط شعرها الطويل كذنب الفرس، فتحةَ الشقّ البهيّ الذي يبدأ عند أسفل الظهر. تستدير حسنية وقد اختلطت مياهها بمياه العجل، وقد التصقت غلالتها الشفّافة ببدنها، فبانت تضاريسه واضحة للعيون. تبتسم حسنية، فيضيء بياضُ العينين والأسنان. تضحك حسنية وتدفع برأسها إلى الوراء، ثم تشرّع ذراعيها وتدعو عبد الفتّاح، فيصعد البخارُ إلى رأسه، يبتلع لعاباً تجمّع في قاع فمه، ويكزّ على أنيابه متأوّهاً: يا اللّه... !!!

كشريط مسجّل يدور على فراغ وقعت عليه كلمة وحيدة، وصل تأوّه عبد الفتّاح إلى مسامع شاكر الصابوحي، فرفع هذا الأخير رأسه وقال : استجاب لدعائك إنه السميع المجيب. هه، أتشعر بالضيق يا بنيّ؟ أنا أيضاً أوّل عهدي بركوب ما يدبّ على عجلات، كنت أُصاب بنوع من الدُوار لدرجة أني كنت أتقيّأ أحياناً كلّ ما في

أحشائي...

كان شاكر الصابوحي يتكلّم بصوت مرتفع كعادة العميان، فلاحت حسنية لعيني عبد الفتّاح وقد تنبّهت إلى ما يجري واستولى عليها الفضول. فكّر عبد الفتّاح أن هذه فرصته الوحيدة للحوار معها، حتى ولو تمّ له ذلك عبر وسيط، فاستدار ناحية الشيخ الضرير ليجدها في مرمى نظره. يراها دون أن ينظرها مباشرةً، وفي ذلك تورية لنواياه وإصابة لهدفه ذي الحسن الفتّان. اسمٌ على مسمّى يا حسنية! شرّعي نوافذك يا امرأة القصّاب وانظريني اتسلّق أسوارك المنيعة وألج خِدْرك في وضح النهار!

قال عبد الفتّاح : يعطي البصيرة لمن فقد البصر ويُريه بقلبه لا بعينيه. صدق ظنّك أيها الشيخ الجليل، فأنا مصاب بالدوخة فعلاً ومصدرها الضمير لا الأحشاء.

قال شاكر الصابوحي : لماذا؟ هل أتيت عملاً لا يرضى الدين عنه، لا سمح الله؟

فأجاب عبد الفتّاح : يا ليتني أستطيع أن أجيبك يا شيخي، فالمشكلة كلّها تتلخّص في هذه النقطة بالذات.

قال شاكر الصابوحي : افصح يا بنيّ، افصح!

قال عبد الفتّاح : قد جاءني فتى لمّا يخبر الحياة بعد، يسألني المشورة والنصح في أمور العشق والزواج. فوافيته بما خبِرت وعلمت وطالعت، حتى انصرف عنّي دون أن أتبيّن صواب أو خطأ ما به عليه أشرت. قلْ لي أعزّك الله، لو كنت مكاني فبِمَ كنت تجيب؟

قال شاكر الصابوحي : تسألني النصح في موضوعٍ حسّاس

تباينت بصدده آراء العلماء والفقهاء، غير أنهم اجتمعوا على أن الراغب في الزواج عليه أن يقارن بين فوائده وآفاته ليتمكّن من الاختيار. فقد قال أحدهم: يا حبّذا العزبة والمفتاح، ومسكنٌ تخرقه الرياح، لا صخب فيه ولا صياح. ورُوِي عن ابراهيم بن أدهم أنه قال: من تعوّد أفخاذ النساء، لم يجيء منه شيء. أما الإمام الشافعيّ رضي الله عنه، فقد قال: ثلاثة إن أنت أكرمتهم أهانوك، وإن أهنتهم أكرموك : المرأة والخادم والإبطي. أجل، إن كيدهنّ لعظيم... وأنت يا بنيّ، كم زوجة لك؟

قال عبد الفتّاح : ولا واحدة.

قال شاكر الصابوحي : معقول، ولا حتى واحدة؟! عجيب... وفّقك الله في الاهتداء إلى ابنة الحلال. الحقيقة، ليست كل النساء معاقل لإبليس، فمنهنّ المؤمنات وهنّ كالدرّ الثمين... اسمع، تحضرني حكاية أوردتها أخبار السلف عن امرأة كانت تُدعى رابعة بنت اسماعيل، جاءت تخطب أحمد بن أبي الحواري...

قال عبد الفتّاح : هي من جاءت لخطبته؟

فأجاب شاكر الصابوحي : أجل، لكنه كره ذلك لما كان فيه من العبادة فقال لها: ما لي همّة في النساء لانشغالي بحالي. فأجابته: إني أكثر انشغالاً بحالي منك وما لي شهوة، لكنّي ورثتُ عن زوجي السابق الجزيل من المال، أردتُك أن تنتفع به وإخوانك من الصالحين فيكون لي ثواب عند الله. فردّ قائلاً: لا أعطيك جواباً قبل أن أستشير أستاذي -وكان ذاك ينهاه عن الزواج- فروى له ما كان من أمره مع رابعة فأجابه الأخير: تزوّج بها في الحال، فهي وليّة صالحة. فتزوّج بها وتزوّج عليها ثلاثاً، فكانت تخدمه بعينيها وتعتني به وتقول: إذهب إلى أزواجك بنشاطك وقوّتك... أين تجد اليوم مثل أولئك النسوة التقيات؟ تحكّم إبليس في عقولهن ، فصرن يطالبن أن يكون قرار الحلّ والربط في أيديهن...

رفع عبد الفتّاح عينيه يتفقّد حسنية، فوجدها عابسة وقد احتقن وجهها بالدماء. أحسّ بالورطة وأيقن أنه إن لم يسارع إلى إصلاح طابقه، لانقلب السحر على الساحر ولضاعت مجهوداته وأحلامه سدى وهباء.

صرخ عبد الفتّاح : أستغفر الله العليّ العظيم! إذن، كان كلّ ما فعلتُه حراماً بحرام؟ فعاجله شاكر الصابوحي يقول : هوّن عليك يا رجل، ما الذي أتيت ليستولي عليك الذعر؟ فأجاب عبد الفتّاح وهو يضرب كفّاً بكفّ : كلُّ ظنّي أني أجبتُ ذلك الفتى بما لا ينهي الدين عنه! فقال له الثاني : هاتِ، أخبرني بما تفوّهت؟

قال عبد الفتّاح : حين سألني ذاك الفتى في العشق والزواج، خلتُه بكراً يجهل أمور النكاح ويخجل السؤال عنها مجاهرة، فبادرتُه بما خبرت مهتدياً بكل من ألّف في هذا العلم. قل أيها الشيخ الجليل، أوَ لم يجىء في أحاديث الأئمة والفقهاء والعلماء، بأن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين؟ أوَ لم يُقل بأن خير هذه الأمّة أكثرها نساء، وإنه لم يُرَ للمتحابّين مثل النكاح، وبأن من سنن المرسلين أربع: النكاح والسِواك والتعطّر والحناء؟ لذلك، أنا العبد الفقير عبد الفتّاح بن صالحة، قلت لذلك الشاب: إعلم بأن الرجل الحقّ هو من يُكرم النساء ولا يقسو عليهن. تعلّم كيف تصل إلى مرادك باللين والمداهنة وحلو التصرّف والكلام. فالمرأة كالبلّور النفيس، تنبغي مداراته كي لا ينكسر فتدخل شظاياه في لحمك، مسبّبة لك المبرّح من الآلام... وحين حدّثته بذلك، راح يسألني في مواصفات المحمود من النساء، فأجبته بحسب ما أوردته المؤلّفات، في أنها المرأة الكبيرة الردف، الكاملة القدّ، العريضة الصدر، الواقفة النهود، المعقدة البطن، الممتلئة لحماً من العانة إلى الإليتين، الضيّقة الفرج حتى تكاد النار...

تشردق شاكر الصابوحي بريقه وانطلق صدره بالسعال، فمدّ

يده الراجفة إلى جيب عباءته يستعين بمنديل يجفّف به نقاط عرق تجمّعت فوق شفتيه وصدغيه. اغتنم عبد الفتّاح لحظة الهدنة هذه وعلا بعينيه إلى حسنية، كانت منفعلة، محمرّة الخدّين، يكاد لهاثُها يشقّ القماش عن صدرها ويذيب الزجاج حيث حشرت وجهها لتداري حرجها وشغفها بمّا كانت تتابعه بانتباه. نظر إلى زوجها الحمار، كان صاغر العينين، متدلّي اللسان...

قال شاكر الصابوحي بعد أن استرجع أنفاسه : لا حاجة بك إلى الخوض في التفاصيل. أوصلني مباشرة إلى لبّ الموضوع. فتابع ابن صالحة يقول : بعد هذا، وافيته بما أعرف عن موضوع العشق والباه، فأخبرته بأن مقاصد الجماع ثلاثة: حفظ النسل وإخراج الماء المحتبس وقضاء الوطر. ثم أتبعتُ ذلك بشروحات حول طرق النكاح مّما ذكره العلماء أمثال ابن قيّم الجوزية والشيرازي وابن قتيبة والسيوطي والقرطبي، رحمهم الله وأدخلهم واسع جنّاته...

مثلاً؟ قال الشيخُ مقاطعاً، فأجابه عبد الفتّاح : مثلاً، حكاية امرأة أرادت تزويج ابنتها فقالت لها تنصحها: «يا ابنتي، كفاكِ شرّ كل بليّة وجعلك عند الرجال محظيّة. اعملي بوصيّتي كل ليلة، فإذا تقرّب زوجك منك ومدّ يده إلى جسدك، فتحرّكي برشاقة وتزحزحي بلياقة، واظهري له استرخاءً وفتوراً وغنجاً، واكثري من الملاعبة قبل الإيلاج، حتى يحصل بينك وبينه الهياج. وإذا ما صار بين رجليك، فأكثري له من الأنين والحنين، وعضعضيه في شفتيه، وافعلي ما يفعله معك، واظهري دلالاً رقيقاً سكّرياً، وارهزي من تحته رهزاً سوياً، وارفعي له وسطك واكثري من الهيام لعلّ شهوته لا تنام» ...

عاد الشيخ الضرير إلى مقاطعة عبد الفتّاح بنوبة سعال مفاجئة، ثم همس يسأل:

– قل لي، من أين جئت بكل هذا العلم؟

– من الكتب والمؤلّفات.

– وأين وجدتها؟

– في المكتبات والأسواق.

– ولها عناوين واضحة؟

– المكتبات؟

– لا يا بنيّ، لا! الكتب، هداك الله!

– أنا غالباً ما أنصح بقراءة مؤلّفين عظيمين يضمّان معظم ما رويتُه لك.

– وهما ؟

– «الإيضاح في علم النكاح» ، و«الروض العاطر في نزهة الخاطر».

– ترجمات؟

– سامحك الله! هذا انتقاصٌ من قدر علمائنا أيها الشيخ الجليل!

حسناً، حسناً، همهم شاكر الصابوحي حاسماً النقاش، ثم أضاف : تابع الآن. فقال عبد الفتّاح : هذا، وقد أوضحت له ما على الرجل تقديمه على الجماع، ومنه ملاعبة المرأة ومصّ لسانها وإشباعها عضّاً وتقبيلاً ومصّاً كي تزداد شهوتها وتلين بين اليدين، ثم رفعها وهزّها ودعكها وتقبيل الصدر والنهود والأعكان والأخصار، وصولاً إلى الإيلاج والوطء في الفرج وقضاء الوطر و...

صمت عبد الفتّاح، وراح بدوره يمسح بطرف عباءته ما تجمّع فوق الشفتين والصدغين، ممتثلاً بحسنية التي اشتعل وجهها بالنار

فأخذت تتهوّى برقعة قماش. تنبّه محسن القصّاب إلى ضيق زوجته، فرفع كفّيه يلوّح بهما أمام وجهها، فما كان منها إلاّ أن صفعته عليهما، فسحبهما واستكان، وعاد ينظر موارية ناحية عبد الفتّاح.

مال الشيخ الضرير على جاره يقول : هه؟ أهذا كل شيء؟ لا، أجابه ابن صالحة، لكن لا أطيل عليك الحديث لما فيه من تفاصيل أخجل الخوض فيها مزيداً. ثم تابع في سرّه يقول : الأعمى الخبيث! تنبّه شاكر الصابوجي إلى أن سؤاله الأخير قد فضح اهتماماً مبالغاً به، فعاجل يُصْلح من موقفه ويقول: لا تخجل يا بنيّ، واعلم أنه لا حياء في الدين...

يدّعي عبد الفتّاح متابعة الاستماع، ثم يفرك يديه كمن يقبل على أكلة شهيّة نادرة المذاق. يمدّ يده يستعيد المسبحة التي علّقها في عقفة عصا شاكر الصابوجي، متلاعباً بحبّاتها الكبيرة الصفراء بعصبية ظاهرة. ها هو درس حسنية الأول قد تمّ على أحسن ما يرام. ها هي قد نضجت يا عبد الفتّاح، وما عليك سوى بتحيّن الفرصة المناسبة، حتى تبادر الى القطاف. وزوجها؟ ليس مهمّاً. تجد له حلاً ملائماً، هذا إذا لم تسبقك هي إلى إيجاد الحلّ...

أخيراً، هدأ جاره الشيخ الخبيث بعد أن سمعه يختم كلامه بالقول: هذا بعض مّما ورد في شروحات الفقهاء، فاستساغت أفكاره هذا الصمت وحملته لتسرح به بعيداً عن فضاء الباص...

* * *

قالت له : يا عبد الفتّاح، لا فكّة معي في الفرن، هلاّ صعدت معي إلى الدار...

تبعها الصبيّ في الممشى المعتم الضيّق إلى أن ولجت غرفةَ النوم وبقي هو واقفاً في الباب. كان ضوء الغرفة على حدة، زهرياً بلون الستائر المقفلة في وجه النهار. شقّت درفتي الخزانة ودستّ يدها الطحينية بين الشراشف والملاءات. نظر عبد الفتّاح حواليه خلسة، واستوقفته تلك المنضدة الجميلة تعلوها مرآة مستديرة تعكس ما اصطفّ من قوارير ومساحيق وزجاجات صغيرة مصطبغة بألوان سميكة طليّة يسيل لها اللعاب. طلاء لأظافرها الطويلة الحمراء التي أشارت إليه قائلة: تعال يا صبيّ، لا تخف. ناولني العلبة التي فوق.

لم يكن الصبيّ خائفاً. طفولته كلّها أمضاها بين أفخاذ النساء، فلمَ يخاف؟ يخاف من الشارع ربّما، من الأولاد يتعاركون معه ويعيّرونه: يا ابن صالحة، أين أبوك، أما أخبرتك أمّك "الصالحة" من يكون؟ يخاف من نظرات الرجال، أجل، حين يعبر الحوْش خلف أمه تدخل البيوت لتطبخ في المآتم والأفراح، حتى ذاع صيت "نفَسها الطيّب" في الأرجاء. لكن، منهنّ هنّ، كيف يخاف؟!

تُجلسه أمّه -رحمها الله- على طبلية صغيرة في المطبخ. ترمي أمامه بباقات البقدونس والنعناع والكزبرة ورؤوس البصل والثوم، البطاطا والجزر والكوسى والباذنجان، ثم تأمره بالتنقية والفرم والتقشير والغسيل. تدخل عليه نساء الدار يمازحنه ويلعبن بشعر

رأسه الصغير، ثم يغرقن معه في لهب الطناجر وعجقة المكان.

المطبخ. هذا العالم السحري الذي تفتّحت عيناه عليه. عالم النسوة بامتياز. شبق حركاتهن. رواحهنّ ومجيئهنّ وجلبتهنّ. تعاطيهنّ مع المواد. الأيدي التي تصمت وتنتف، تهرم وتدقّ، تقطع وتحشو، تفرم وترشّ، تمزج وتعكّ، تدعك وتعجن، تنقّي وتخفق وتذوق... الأيدي المغناج التي تلتمع بالزيت والسمن والماء. الأيدي التي تصفّق، تطقّش، وتكوّر النكات والمزاح. أيدي الخواتم والأساور ونقوش الحنّة الحمراء. المطبخ. عالم النكهات والأسرار. عالم البطون والأفخاذ والنهود. روائح السكّر المحروق والحنّة، العرق والعطور. روائح الأجساد الفتيّة المشدودة، والشائخة المترهّلة. رائحة ما بين النهدين. رائحة الشعر والإبطين. الرائحة القوية المركّزة، والرائحة الخفيفة العابثة المِغناج. رائحة الضحكات والكلام الممنوع، الكلام الزفر والتوابل والكاز. المطبخ. عالم الإناث، والمطبخ-الجنّة، وصوتُها الذي يتمرّغ عليه كقط أليفٌ، يفتح مسامه ويقول : تعال ياصبيّ، لا تخف. ناولني العلبة التي فوق...

حَشَرَتْه ما بين الخزانة وجسدها، فراح ينزلق بينهما. كان الخشب الأجرش المنحوت يزيد من إحساسه بطراوة ملمسها، بعد أن التصقت به من الخلف وضغطته. أخذته من يده وسحبته إلى السرير، فتمدّدت ومدّدته على بطنها وقالت : إرْعَ يا خروفي الصغير!

ما بين المطابخ وغرفة نومها، نما الصبي على الطريق. غزا زغب طريّ وجهه، فصار يوصل إلى أمه تحويجة السوق، يضعها أمام مدخل البيت، ثم ينصرف بعد أن امتنعت عليه تلك المناظر الشهية وطُرد من الجنّة الى الشارع حيث يكبر الصبيان. وحدها استمرّت تومىء له من وراء واجهة الفرن. تقول لصبيتها إنها مصابة بالصُداع، تُصعده إلى جنّة ثانية، ثم تغلق ستائرها الزهرية وتضمّه إلى صدرها الفيّاض. . المسكينة -كان يتمازح أهل الحي- دائماً

مُصابة بوجع الرأس! وهي تضمّه إلى صدرها وتعلّمه الممنوع والمحرّم والمعيب. ترفع يدها المغبرة الطحينية بأظافرها المصطبغة بالأحمر اللمّاع، فتعبث به وتقول: كبرتَ يا خروفي الصغير. عشت يا عبد الفتّاح، بوركت يا صبيّ!

كبر الصبيّ. وطشّ الكلام حامياً في مياه الفرن حتى امتنع أهلُ الحيّ عن خبزها وعجينها. قالت له : تعلن أمام الجميع أنك مسافر لسبب، لغرض ما، ثم تجيئني ليلاً ولا تبارح المكان. إمتثل عبد الفتّاح. كان صبيّها وكانت أقرب من أمه إليه. قال الناس: المسكينة، ها هو وجع الرأس لم يغادرها بالرغم من غياب عبد الفتّاح. وعادوا إلى خبزها والفرن.

يصعد عبد الفتّاح إلى مخدعها العالي ويبحر في ليل الملذّات والمعاصي. تدفعه ريح الفرّانة لتقطع به المسافة المتبقّية بين مراهقته وآخر البلوغ. تنزل إلى الفرن وتغيب لساعات كي تدفع عنهما الشبهات، ثم ترجع إليه برائحة الخبز الطازج وحكايا أهل الحيّ، حتى صار عبد الفتّاح لا يقوى على طول الإبحار وتسلّل إلى فؤاده القنوطُ والجنينُ إلى اليابسة. خافت عليه. دبّ فيها الذعر. ترغب في تحصيل علم، في إتقان مهنة ما؟ لا بأس. أجلب لك مدرسة بحالها، لكن إبقَ معي وفّقك الله...

بعد نوبة بكاء، أخذته من يده إلى علّية خشبية في الدار. فتحت صندوقاً عتيقاً وقالت : هذه من تركة زوجي المرحوم...

والمرحوم -رحمه الله- كان مولعاً بعلوم الغيب، بالسحر والفلك والمداواة بالأعشاب والوصفات. كتب بالية صفراء تزخر صفحاتها بالرسوم والأشكال، دوائر ومربّعات ومثلّثات، رموز، أحرف وأرقام. كنوز انفتحت في وجه عبد الفتّاح الذي جعل يقرأ ليل نهار حتى استوت لقدميه خارطةُ السماء، فأصبح ينتقل بين كواكبها والنجوم

كمن يجول في سكناه :

... مجموعة الدبّ الأصغر والجاثي على ركبتيه. هذه ممسك الأعنّة، ذات الكرسي، الدجاجة، وبجانبها الشلياق... تلك المرأة المسلسلة، يليها الفرس الأعظم، الرامي والعقرب والسرطان. هناك السفينة، قيطس، الفكّة، الحوت الجنوبي، راكب الماء، وقيطورس ...

حسابات الفلك، الزوايا والأبراج. برج المولد وبرج الطالَع. حركة الكواكب، بيوتها ومواقعها. عزائم وطلاسم لتسخير ملوك الجان. استخدام نائلة أمّ الشعور المائلة، زيتونة وزيتون ولدي إبليس. ميمون الخطّاف، والملكة حمامة ابنة داغر. أبو فروة ومرجانة ابنة الأمير حندش وطمطم الهندي...

أبواب وفوائد لتهييج ذات المحاسن وتقوية الباه، لسرعة زواج البائر، للنزيف والحمّى، للشرّ والبغضة، الفراق والإسقام، زوال الدوخة والضارب والشقيقة، ردّ المطلّقة وعقد اللسان، رباط العريس والمحبة والجلب، حلّ المربوط في خلخلة الهوى وفي وصال العاشقين...

أحرف وأرقام. ثوم وكبريت وبخور ورماد. قوارير ودم وطاويط. بيضة دجاجة سوداء. رقعة حمراء. لبان وكزبرة. عيدان وجمر ونيران. دهن وكمّون وكرماني. نخالة قمح. عود سندروس. تنكار. حنتيت. رهج وشمع وصندل. زجنفر. زنجبيل. وصفات. مقادير. ساعات مؤاتية وغير مؤاتية. ساعة الزهرة. المشتري. زحل. عطارد. المرّيخ. القمر. الشمس. حساب الأرقام والحروف. المقادير والمعايير. الأوزان والنسب وطرق التحضير. هاش - واش - تلاميش - يشليش - طلحطش - طلوهيش - شفش - شفو - شش - سيف - سفيف - سفسفيف - ليف - أرج - يهوج - هيكج - سلسليم - كلكليم - طلطليم...

عامان كاملان أمضاهما في مطابخ الشعوذة والأسرار. عامان كاملان بين فخذي فرّانته وكتب زوجها العطّار، إلى أن نزل درج بيتها ذات يوم وعاد... عاد عبدُ الفتّاح من سفر طويل، بوجه يعلوه الشحوب ويدين حكيمتين قادرتين على الشفاء. عاد ابن صالحة بمسبحة كبيرة صفراء وفي جعبته مئات الأدوية والوصفات، ردّد أهل الحيّ فيما بينهم، ثم منحوه أوسمة ونسبوا إليه عجائب يقف لها شعر الرأس.

يجثو ويرتمين على قدميه: إشفِني أيها الوليّ الصالح. أعِد لي زوجي، حبيبي، خطيبي، فلان ابن فلانة وفلان... داوِني بالوِصال. فكّ عقدتي واحمني من البوار...

تمرض النساء من العشق. من الغرام والوله والكلف والتيم والهيام. تتلف النساء كنبات لا ينمو إلاّ في الحرارة والدفء، فينحني عبدُ الفتّاح على هذه المخلوقات الرائعة التي اختطفتها أيدي ملوك الجان. يرقّ عبد الفتّاح لحالهنّ. يرى أجسادهنّ الذابلة متعطّشة لمياه ذكورته كي تينع وتزهر وتعود إليها الحياة. يسقطن في أوعية شهوته كالثمار الناضجة، ويُذقنه فاكهةَ فصولهنّ يزيدها الهياجُ سكّراً وحلاوة مذاق. يرتع عبد الفتّاح في مراعيهنّ كالفحل. يغزل شباكه على هداة، ثم يتسلّق أسوار أنوثة مكتملة او في مقتبل العمر.

ولا يجلس عبد الفتّاح في رغباتهن طويلاً، وإنما يبقى على مجيء ورواح. مرّة واحدة، لا اثنتين! مرة واحدة. كالصيد. كالقنص. كالإبادة. كالقتل. ومرّة فقط، كي يتفادى العادة والتعقيداتِ وغضب الإخوة والأزواج والآباء... يلمّ متاعه القليل ليحطّ الرحال في مرعى آخر تنتشر فيه الظبية والغزلان. يحبّهن ولا حيلة له. بالعشرات. بالمئات. بالآلاف. يسرع عبد الفتّاح. لا وقت يضيّعه. ما خَلَفَه قليل،

أمّا ما تبقّى، فيعِد بأجمل الثمار...

ها هو اليوم متوجّهٌ إلى الجنوب بعد أن مسحها مناطق وقرى الشمال. حسنية محطة على دربه المزروعة ببطون منفوخة تهدّد فحولته وشهوته التي لا تعرف الكلل او الانطفاء. حسنيّة أمنيته الأخيرة قبل أن يغادر الشمال، واستراحته الأخيرة قبل أن تغرب عن عينيه آخر منارات الشمال!

- ٩ -

البرد في قلب يوسف ورأسه في الشمس...

لا يفتح عينيه. رمى عليه مالك عباءته، فلم يلتفت إليه. سار الباص. توقّف. نزل الركّاب. جاء أغراب. احتدم النقاش. طال. تشاتموا. انقسموا. تناقشوا. استمعوا. تحاوروا. تصافحوا. زغردوا...

مشى الباص.

لن يفتح عينيه. ما يدخل منهما يتسرّب إلى الذاكرة خلسة ويعشّش في ثناياها والفتوق. العينان خطرتان. عيناه. بودّه لو يُبقيهما منغلقتين أبداً. بودّه لو تنطفئان...

رأها.

مرّة أولى وكانت تقف في باب الدار. مرّة أخيرة وكان الفناء مربّعاً وكانت خيطان الذهب أكثر غواية من أناملها التي راحت تطرز أطراف القماش.

رأها تقف في باب الدار.

ولم تكن أجمل من الأخريات ولا من اللواتي التقاهنّ في المدن حيث كان عمله يقوده مُجبراً إياه دوماً على الترحال. لم يكن جمالها فيها. كان في مجموعة من الأشياء، حتى استلقى قلب يوسف

مصاباً بحالة مفاجئة من الشبع والامتلاء. عبرت من عينيه إلى روحه، وكانت مصحوبة بكل ما معها من متاع. لم تكن أجمل من الأخريات، لكنّها كانت تحمل أخاها الصغير على خاصرتها وتقف في الباب. كان أخوها الصغير سعيداً، وكانت ابتسامته تطغى على نور النهار. كان وجه أخيها فيها وقدمُه في خاصرتها، وكانا يقفان في الباب ويبتسمان. لا. لم يكن أخوها هو السبب. كان الأمر سابقاً عليها وعلى أخيها وأبيها، وحتى على أخوية العميان.

هو الأصْفَر ربما.

أجل، هو ذلك الأَصْفَر بالذات لا محالة. مزيج من الروائح المتداخلة في الألوان. دخل يوسف إلى مدينتها من بوّابة، ثم وجد نفسه وقد سقط في رَحم مكان ألقى مفاتيحه في البحر بعد أن أمِن غدر الزمان. فاجأه الأَصفر. أصفر التراب وأصفر الذهب وأصفر الزعفران. أصفر الشمس الغاربة وبرتقالها، وأصفر الصور العتيقة التي نتبنّى أهلها مباشرة ودون سؤال. الأصفر الذي فيه نكهة التوابل والقوافل والأبراج المسنّنة. أصفر الأبنية الترابية والأزقة الضيّقة والحوانيت الصغيرة والحارات. أصفر الشموع والمشاعل والفرسان، وأصفر الخشب والنحاس والقناديل. أصفر الوقت الهانىء والكلام الذي يتطاير خفيفاً كالفراش أو كالنفناف. أصفر الغبطة والهدأة والنشوة، وأصفر الذكرى والحنين والطفولة والنعاس. أصفر الآباء والعائلة والأحبّة والرفاق...

الأصفر العربيّ، أجل هو هذا الأصفر باختصار!

رآها.

مرةً أولى، وكانت تقف في الباب. خبط أخوها بقدمه خاصرتها، فأنزلته وجرى باتجاه يوسف. ارتفع إليه بعينين ضاحكتين وشدّ طرف سترته يسأله من يكون وما يشاء. أمسكت كفّه الصغيرة كفّ ذلك الغريب، ثم اصطحبه لكي يشاور أباه.

بعد الأصفر وبعدها وبعد أخيها، جاء دورُ الأب وجمعية العميان. لم يكن يوسف مهيّأً. أخذوه على حين غرّة واجتمعوا على قلبه المريض. استقبله الأب بالترحاب خلف ذقنه المشذّبة البيضاء. أحاط كتفه بذراعه، ثم قذفه إلى الداخل وقال : إجلس ها هنا وأعود إليك بعد قليل...

تنبّه العميان إلى حضوره، وارتفعوا بعماماتهم وأعينهم المطفأة يسائلون فضاء الباحة عمّا يريده بهم هذا القادم الدخيل. جلس أخوها على فخذيه، فدقّ الأب بعصاه وتابع العميان الغناء. راحت ألحانهم العذبة تلاعب روح يوسف بالدفّ والقانون والعود. غرغرت روح يوسف بالضحك، وارتفعت فيها مياه رقراقة تتلألأ بالأنوار والحصى الأبيض وفقاقيع الهواء.

وقع يوسف عاشقاً، فأحبّها. أحبّ أخاها، أباها، وأحبّ أخوية العميان. أحبّ روحه اليتيمة يعهد بها إليهم وينزع عنها الأقفال، يشرّع نوافذها كي يعبروا على سجيّتهم، وربما أنِسوا إليه وسكنوه.

عاشقاً كان يوسف. فرحاً. غبطاً. عملاقاً. طائراً. حجراً ونبتة ونجمة بهيّة تسطع منيرةً وجه السماء.

كان يوسف ك ... كسيف الدين في أشكباد! أرأيت أيها الترجمان؟ فقط، لو يراه الآن. لو يروي له ويصف مستغرقاً في التفاصيل حتى يخلص الكلام. . منذ البداية. منذ البوّابة. منذ الأصفر. منذ اللحظة الأولى حين رآها تقف وأخوها في الباب...

- ١٠ -

كانت جيوب حسن الصوفي لا تزال مملوءة حجارة وحصى، عندما قام إلى السائق يستأذنه بأخذ قنينة الماء الموضوعة عند قدميه. نظر إليه السائق بطرف عينه وبعد تردّد، أذن له بأن يفعل. كان راضياً عن سير باصه فوق دروب راحت تستوي لعجلاته، وشبه ممتنّ لسلوك حسن خلال واقعة أهل الزيتون.

لمح في مرآته المرأة الحامل تجلس مستكينة في المؤخّرة خلف عباءتها الطويلة السوداء. مذ صعدت في الباص، أمضت الوقت ساكتة تتأمّل في الطريق. بعد أن وافته ببعض الإرشادات ووضعته وباصه في الاتجاه الصحيح، سألها إلى أين تتّجه، فأجابت أنها أطلعت المعاون قبل ركوبها معهم أن طريقهم لا تمرّ في قريتها، وأنها ما ان تصل إلى أقرب مسافة، حتى تشير إليه بالتوقّف فتتابع سيراً على الأقدام... لم يسألها المزيد، إذ خشي أن تعتقد أنه يتحرّش بها لغاية في رأس يعقوب... ما له ولها، ردّد في نفسه وهو يزيح عينيه عن المرآة. يُنزلها ولا يتوقّف بعد ذلك، قبل وصوله إلى جبل المحروس، أولى استراحات الجنوب.

عاد حسن إلى مقعده وهو يتمايل يمنة ويسرة. اعتذر من نخلته حين لامس أغصانها بقفاه بينما كان يسعى إلى الجلوس هذه المرّة،

ناحية الشبّاك. رفع قنينة الماء إلى مستوى عينيه، فتحوّلت ملامح وجهه إلى ما يشبه القرف والاشمئزاز. أغمض عينيه على مضض، ثم وضع الفتحة على فيه وشرب بصعوبة بالغة بعض الجرعات. كان الماء فاتراً، مزّاً وأسوأ مذاقاً من أي دواء. مسح فاه بظاهر كفّه، ثم قال متظاهراً بالتلذّذ : ياه، ما أطيب الماء!!

بعد لحظات، أحنى القنّينة على جذع نخلته، وما أن قاربت المياه على الاندلاق، حتى سحب يده حائلاً دون سقوطها. حسناً حسناً، لا تغضبي -قال حسن مغتاظاً- أجل، طعمها شبيه بالبول ولكن، ما تريدينني أن أفعل؟ أينبغي أن نتقاسم دوماً ما تبقّى في القربة؟ يجب أن تضحّي قليلاً. أما رأيتِ ما حملته لنا الدرب من مفاجآت؟ هذا معناه أن مؤونتي قد لا تكون كافية مع كل هذا التأخير! سوف أسقيكِ الآن، فافتحي عروقك ولا تمانعي...

دلق حسن بعضاً من الماء على جذع شتلته، وتفادى النظر إليها مديراً وجهه إلى الجهة المعاكسة. وإذ شعر بأنه يأتي عملاً على شيء من الخساسة والوضاعة، وعد نفسه بالنسيان بعد حين. قال بأنه يسقيها ماء لأنهم تأخّروا في الوصول. الوصول؟ إلى أين؟ المغادرة أجل. المبارحة. الابتعاد. لكن الوصول؟ هذا أمرٌ مازال يحتاج إلى الدراسة والتفكير.

شعر حسن بالحزن يزحف إلى نفسه. فعدّل في جلسته علّه يوقف هذا الزحف. وحين أيقن أن قربته هي الوحيدة القادرة على مدّه بالعون، تناولها وغبّ عميقاً، ثم فتح النافذة على مداها وانتصب واقفاً يسرّح عينيه في المناظر التي راحت تعبره بسرعة غير عابئة بهذا المُشاهِد ذي العينين الزائغتين.

ألقى شاكر الصابوحي رأسه إلى الوراء، ليفسح لدفعة هواء طازجة فاجأته بغتة، أن تأخذ راحتها في التغلغل فيه. كان حديث عبد الفتّاح، الساخن اللاهب، لا يزال عالقاً في حنجرته ، لذلك رحّب بهذا القادم الذي حمل برودة ذكّرته باقتراب موعد صلاة المغرب.

أمسك شاكر الصابوحي بعصاه بعد أن وضعها بين فخذيه، مطلقاً صوته على مداه: باسم الله الرحمن الرحيم! هلاّ توقّفت بنا بعد قليل أيها السائق لكي نؤدّي واجباتِنا كمسلمين، بما يرضي الله ورسوله عليه الصلاة والسلام؟

اخترق صوت الشيخ الضرير ظهر السائق محدِثاً أثراً مماثلاً لما قد يُحدثه نصلُ خنجر حاد، وتنبّه الركّاب جميعاً إلى احتمال حدوث مكروه ما، حين وصل إلى مسامعهم كلام السائقِ محقوناً بأطنان قلّة الصبر والاستياء: إسمعوني جيّداً! لن يتوقّف الباص بعد الآن، أبداً، أكان ذلك في مواقيت الصلاة، لاحتضار أحدكم، أو لأي سبب كان! لستُ إمام جامع... مفهوم هذا الكلام؟

بقي الركّاب صامتين وتفادوا الإتيان بأية ردّة فعل أو تعليق، ذلك أنهم كانوا على ثقة من أن السائق إنما كلمهم بصيغة الجمع عمداً، في الوقت الذي لم يقصد بتأنيبه سوى شاكر الصابوحي. ولو لم يكن شاكر هذا ضريراً أوّلاً، وشيخاً ثانياً، لقام إليه مستعملاً شيئاً آخر غير اللسان.

احتقنت الدماء في وجه شاكر الصابوحي، فتشبّث بالمقعد أمامه يستعين به على الوقوف. التفتت خدّوجة إلى كاتب المحكمة كأنما تطالبه بالتدخّل السريع، فانحنى مالك نحوها يهمس : يا أختي، إنما الأعمالُ بالنيّات!

أرسل عبد الفتّاح نظرة خاطفة إلى حسنية يدعوها أن تكون شريكته في التفرّج على المشهد الذي سيدور أمامهما بعد قليل، وقامت المرأة الحامل تسند بطنها وتعلو برأسها منذ مؤخّرة الباص، وهي تعضّ على طرف خِمارها لتقاوم ألماً ما.

أسرع المعاون كعادته في مثل هذه المواقف، يخفّف من آثار ما توقعه بالركّاب غالباً ردات فعل سائقه، كأنما هو بذلك ينفّذ شروط عقد ضمنيّ تمّ توقيعه مراراً بينهما.

سبحت يدُ شاكر الصابوحي في فضاء الباص تبحث عن العون، فلامست رأس محسن القصّاب وما لبثت ان استدارت عنها لقصر قامة دلّت على صبيٍّ غرّ او قزم لا يمكن اعتباره رجلاً بين الرجال. راحت يدُه ترفرف وتنتفض كطير مذبوح، تخبط نفسها وتولول وترتجف وتتألّم، حتى دبّ الخوف في نفوس الركّاب ممّا ستؤول إليه هذه اليد الحائمة فوق رؤوسهم كغراب مشؤوم أصابه مسّ وجنون.

كان حسن الصوفي لا يزال واقفاً بعد أن أدار ظهره للنافذة ليراقب ما يدور في الباص، وحين تعثّر الشيخ الضرير وهوى بثقله باتجاه شتلة النخيل، هبّ حسن يواجه بصدره الهجوم المفاجيء ويصرخ : ستقتلها يا مجرم! ستقتلها أيها الأعمى اللعين !! ثم انحنى عليها يتفقّدها ويقبّلها مهنّئاً نفسه على سلامتها، منتهياً الى نقلها برويّة ناحية الشبّاك، ليجلس في مقعدها هامساً : هكذا أفضل، أقوم بحراستك وأحميك ممّن يريد بكَ الشرّ...

أسرع المعاون يرفع شاكر الصابوحي عن الأرض ويهدّيء من روعه بعد ان فار فمه بزبد اللعنات والصراخ : كدتم تودونني جهنّم بعنادكم وكفركم وخروجكم عن واجبات الإسلام... كدت أمعس طفلة

بريئة... كدت أُزهق روحاً بشرية! ولماذا؟ لأنكم لا تُعيرون احتراماً لوصايا الله... لأني تجرّأت وطالبت بإقامة الصلاة ... أيها الكفرة! أيها الملحدون، لكم عذاب النار...!!

إزاء هذا الرعيد والوعيد، وإزاء منظر حسن المنحني على شتلته بوجه مأساوي التعبير، كان الركّاب حائرين ما بين الشعور بالخوف من وابل اللعنات المنهمرة على رؤوسهم، وبين الرغبة العارمة بالضحك من عبثية هذا الموقف الممتلىء باللغط وسوء الفهم...

ابنةُ خدّوجة كانت أوّلهم إلى الحسم. أطلقت ضحكة تبعثْها شهقة سبّبتها كفّ أمّها التي هوت على وجهها دونما تأخير. غير أن الأوان كان قد فات، إذ انتشر الضحكُ بين الركّاب، كما تأخذ النار في الهشيم.

اشتعل الركّاب بالضحك. الضحك الصريح والخبيث. العلني والسرّي. الفاضح والمكتوم. الوقح والخجول... الضحك الذي يشبه حركة الفئران، والضحك الذي يزأر كأسد أو يتحرك كالفيل. الضحك الحرّ الحقيقي، والضحك المسايِر المفتعَل والمراوِغ الاصطناعي. الضحك في مقدّمة الباص، في المرآة الصغيرة بالذات، وفي المؤخرة والبطن المنتفخة المتكوّرة تحت عباءة سوداء. الضحك الذي يكركر بين حبّات المسبحة الصفراء، والضحك في النظّارات الملتمعة وفي صفحات الكتاب السميك. الضحك في القدمين اللتين لا تطالان الأرض، في وزن السكّر وفي الخُرج الكبير. في الجسد البضّ الذي فيه فحولة عشرة ثيران، وحتى في أثاث غرفة النوم وسائر المتاع والأغراض.

ضحكٌ يجري بالطول والعرض، بين المقاعد وفوقها. يرتطم بالنوافذ، يتمرّغ على الأرض، ليعاود الكرّة مرّات ومرّات. ضحك

يشبه نوبات الصرع والأعصاب، وآخر ينفرط كحبّات قلادة عملاقة أو يطشّ كالحديد الحامي في المياه. ضحك يُعمي البصيرة فوق البصر، ويجعلها تتسمّر في أرضها من دون حراك. وضحك يحرّك الأذنين كأسطوانتي رصْد تدوران في كل اتجاه لتلتقطا معنى لهذا التشويش العام... ضحك سائل متفجّر متدفّق. وضحك يلملم أطرافه وينقبض فجأة تحت أثر انخفاض سريع لمستوى الحرارة، أو تحت تأثير الصراخ...

الصراخ الخارج من أسفل البطن. من الأحشاء. الذي يفتح عينيْ من يرى أن العينين خطرتان، على اتّساعهما. الصراخ الذي ينفخ العروق والأوداج. يئنّ ويُحشرِج. يتلوّى ويتأوّه من دون حياء. الصراخ الذي يتقدّم فرقة الركّاب فوق مسرح الباص ، فينفرد بالإنشاد والهتاف حتى يطغى على صوت الضحك، واضعاً يديه على حنجرته، شادّاً الخناق.

الصراخ النسويّ بامتياز، في بطن منتفخة ومتكوّرة تحت عباءة سوداء...

- ١١ -

بعد نوبة الصراخ الأولى، هدأت المرأة الحامل وراحت تنظر حولها بتوجّس. هبّت إليها حسنية، تبعتها خدّوجة ثم مريم، وترك الرجال المقاعد الخلفيّة ليفسحوا، واجمين وجوم الآباء. فجأة، انقسمت مساحة الباص : المقدّمة وفيها اجتمع الرجال متعمّدين إدارة ظهورهم وعدم الالتفات، والمؤخّرة حيث اجتمعت نساء عرفن بأن دور البطولة يحقّ لهنّ فقط في مثل هذه اللحظات.

عاودتها آلام المخاض، فلاكت طرف العباءة في فمها ونصع صفّا أسنانها البيضاء فوق سواد القماش. تمدّدت على المقعد الخلفي بأمر من حسنية التي جلست تسندها من الخلف بأفضل ممّا تفعله وسادة من ريش النعام، بينما كانت خدّوجة تراقب دوران عقارب الساعة لكي تتبيّن عدد الدقائق الفاصلة بين نوبة وأخرى.

حار السائق في أمره: هل يطلق العنان لباصه فيصل بها إلى حيث تقصد قبل فوات الأوان، أو يكبح اللجام مسايرة لآلام هذه المرأة المسكينة التي تحوّلت صباحاً إلى أرملة بعد أن دخل زوجها الصيّاد المياه ليموت غرقاً في بحر أفسدته العاصفة الهوجاء؟ ولشدّ ما كان راغباً بطرح هذا السؤال على الركّاب، إلاّ أنه امتنع لدرايته بأن مساءلتهم الرأي سوف تؤدّي به إلى مزيد من البلبلة. يا لهذه الرحلة التي لن تنتهي على سلام، ردّد في قلبه، وعلا صوت خدّوجة

يضيف : عشر دقائق! إذا وصلت إلى خمس، توقّفنا وجعلناها تلد في الباص!

انقبض صدر السائق لهذا الإعلان. فهو منذ اللحظة، مضطرّ إلى تسليم القيادة لامرأة، وما تبقّى إلى الله. كان يكرهها تلك العجوز الشمطاء، لكن ما كان بوسعه أن يفعل لو لم تكن بين الركّاب. قالت خدّوجة : يتسارع الطلْق يا جماعة وتقصر الفترةُ الفاصلة بين مغصة وأخرى. لا بدّ من التوقّف فوراً. الآن وفي الحال!

خضع السائق مرغماً وحاد بباصه عن الطريق العام. نزل الرجال الواحد تلو الآخر، وحاذروا التعليق خوفاً من مزاج السائق الذي بدا أنه لا يحتمل أي نوع من المزاح. نظروا إلى الشمس الغاربة عند أطراف السهل المترامي الأطراف، ولفّ يوسف نفسه جيداً بعباءة مالك، حين اخترقت جسدَه قشعريرة بشّرت بدنوّ المساء...

* * *

– إدفعي يا أختي. لا تخافي، معك بركة الله. أجل، بعد، شدّي بكامل قواك... وليدك البكر؟ لا بأس عليك. سوف تلدين بدراً إن شاءالله...

كان صوت حسنية يخرج على دفعات. كان صوتها مقطّعاً بدفعات الهواء التي كانت تزفرها على عجل، وهي تعلّم الحامل كيفية التنفّس والشدّ والمناوبة بينهما. سال ماء الرأس، صرخت باتّجاه خدّوجة، ففهمت خدّوجة أنها بصراخها ذاك إنما تطالبها بالقيام بما هو أكثر من الإمساك بتلك المرأة المسكينة التي وقع نصفُها متدلّياً فوق أرضية الباص. أضافت حسنية بشيء من الملامة والعتاب : ما لك يا أختي جامدة هكذا وكأنك لم تلدي في حياتك؟ الأحرى بي أنا أن أُصاب بالخوف والجمود... أجابتها خدّوجة محرجة : نسيت... أشيري عليّ، وفّقك الله.

أطلقت المرأة الحامل صرخة قوية، فأجفلت حسنية و ركضت إلى النافذة تنقّل عينيها بحثاً عن زوجها محسن القصّاب. طالعها منظر الرجال وقد سرحوا بعيداً في البستان، فنادت بملء صوتها: محسن! أين أنت يا رجل؟ وما هي إلاّ ثوان، حتى أقبل إليها المعاون راكضاً، يتبعه آخرون.

تدلّت حسنية من النافذة ثم همست في أذن المعاون كلاما سريعاً ومقتضباً لا يقبل النقاش. هزّ الأخير رأسه عابساً، ثم دار إلى مؤخّرة الباص حيث اعتلى السلّم الخلفيّ مسرعاً إلى السطح. وصل محسن لاهثاً وناداه: ما الذي قالته لك؟ فردّ المعاون: إجمعوا حطباً واصنعوا موقداً. إليك هذه الحلّة، إملأها ماء وضعْها على النار.

بين نوبتي صراخ، مالت خدّوجة على حسنية تقول: إنها بِكريّة يا بنت الناس، قد يطول بها الوَضْع حتى الصباح وربما... غير أنها لم تتمّ جملتها تلك، إذ انقطع صوتها فجأة وجحظت عيناها كأنها رأت إبليس او الشيطان. تركت المرأة الحامل وحسنية، وركضت إلى النافذة تتأكّد من حقيقة ما رأته يتدلّى من السطح : أهو ضربٌ من الخيال، أم أن عينيها أرتاها شيئاً يخصّها ويتمّ إنزاله خلسة من على سطح الباص؟ مدّت راحتيها تتلمّس وتعاين، وحين تيقّنت من صحّة ظنونها، ذُعِرت وانتفضت تقف على المقعد وتحوش بذراعيها الفِراش.

قال معاوية يعاونه عبد الفتّاح: ما لك أيها المعاون؟ أتركه الآن من ناحيتك، فقد أمسكنا به...! غير أن خدّوجة التي تشبّثت بالفِراش بكامل قواها، كانت تمنع نزولَه إلى الأرض من دون أن يراها الرجلان. تأكدّت حسنية من ضرورة تدخّلها على الفور، فانتقلت إلى جانب خدّوجة تربت على ظهرها وتقنعها بتركه :

– أفْلتيه، يرحم والديك... ألا ترينها المسكينة تتخبّط بين المقاعد ويرتطم جسدها بالحديد؟ لا تخافي على الفراش. غلافه البلاستيكي يحميه من الأوساخ. ونمدّ فوقه بساطاً لمزيد من الوقاية... هيّا، أرخي أصابعك... حرام أن نتركها تلد في الباص وهي أرملة مسكينة لا أهل معها ولا معين... صلّي على النبي يا أختي واتركيه...!

بعد لحظات من الصراع المستميت والعراك العنيف، امتثلت خدّوجة وقد أحسّت بقواها تخور، فهوت على المقعد منهكة لا تقوى على الوقوف. بكت خدّوجة بحرقةٍ كبيرة دون أن تنبسّ ببنت شفة، إذ ما كان يسعها أن تقول أو تفعل سوى البكاء؛ مصيبة ووقعت على رأسها حتى كادت تُصاب بالإغماء... يا لحظّها العاثر! يا لهذا

النحس الذي يلاحقها منذ اللحظة التي رأت فيها النور! يا لحظّ ابنتها العذراء التي سيُدنّس فِراشُ عرسها بولادةٍ قبل الأوان !

قامت خدّوجة إلى ابنتها بعد أن تذكّرت فجأة أنها لم تزل معها في الباص، فمدّت يدها إلى شعر مريم تمسّد عليه بحنان: لا تجزعي يا مقلة العين، وثقي أننا لن نخبر عريسك بما وقع لنا وللفراش...

- ١٢ -

هو الأزرق والبرتقالي وألوانٌ تدرّجت بينهما. هو آخر النهار، ذاك الأزرق الحائر بين النيليّ والبنفسجي، وأولى النجوم تقبل من البعيد لتأخذ مكانها في قبّة السماء.

هي النار المجنونة التي اشتعلت في العيدان والأغصان والأوراق. النار المُفَرْقِعَة المُطَقْطِقة، العصبية الهوجاء، تحت حلّة مُلئت بالماء وأُسْنِدت إلى حجرين.

هو الحبل الذي أوثق إلى جذعين وأُلقي فوقه شرشف يخفي الفراش ومن حوله من النساء. وهو القنديل -أجل قنديل الكاز نفسه- وقد عُلّق في غصن فعكس أخيلة نسوية ارتجلت مشهداً يسلّي المتفرّجين الذين جلسوا يترقّبون آخر التطوّرات...

بعد أن نزل الفِراش، عمّت الحركة بين الركّاب ودبّ فيهم النشاط راح المعاون المنتصب على سطح الباص، يقذف إليهم بأوامر مصحوبة بصرر وأكياس. تصرخ المرأة الحامل وتعضّ على عود خشبيّ محشور بين فكّيها، فيبطئون للحظات، ثم يتابعون السباق في فلش اقمشة وإعداد مناشف وصابونٍ وقطن ومقصّات.

لكن، ماذا بعد الماء الساخن وسائر الإجراءات، سوى التحلّق

حول النار وتقطيع الوقت بأكواب شاي يحلّيها السمر، ينفخ عليها السهر، ويبرّدها الانتظار.

قال معاوية المطماطي: غادرت امرأتي وكان ولدنا الثالث على ثديها رضيعاً. المسكينة، كادت تلفظ الروح عند ولادته. جاء بحجم عجل صغير، وكان رأسه بحجم رأس بطّيخ. نادتني وقالت لي: يا معاوية، قد لا يطلع عليّ الصباح. إذا وافتني المنيّة، لا أريد لك حداداً. إبحث عن واحدة وتزوّج بها. لك حرية اختيار من تشاء. فقط، إحرصْ على أن تكون حنونة مع الأولاد... المسكينة، رحمها الله!

سأل حسن الصوفي : وماتت؟

فأجاب معاوية : من؟ امرأتي؟ لا، معاذ الله!

قال حسن : ظننت... أما ترحّمتَ عليها منذ لحظات؟

فأجاب معاوية : أنا؟ أترحّم على زوجتي؟ فأل الله ولا فألك !

قال حسن : وما أدراك؟ أما قلت إنك غادرتها منذ ما يزيد عن خمسة وأربعين عاماً؟

فردّ معاوية : أجل... لكني كنت أتنسّم أخبارها دائماً.

قال حسن : والأولاد؟

فأجاب معاوية : والأولاد طبعاً... ثم ما لك أنت في زوجتي، أميتة أم لم تزل على قيد الحياة؟ قاضي تحقيق...؟

قال مالك الرضيّ : عيب يا رجال! عيب ما هذا الكلام؟ احترموا تلك المسكينة... قُلْ يا أخي حسن، هل لك أولاد؟

فرقع حسن بالضحك، ثم قام يجلس بالقرب من مالك وقال : كان عندي أولاد، الكثير من الأولاد... أف، بالعشرات! فعلّق عبد الفتّاح ساخراً : طبعاً، طبعاً... أنجبهم دفعة واحدة... في منامه ربما، أو في الخمّارات والحانات! ثم تأمّل في وجه حسن وأضاف: هكذا إذن؟ عندك العشرات من الأولاد ما شاء الله؟ ألا تكون أمّهاتُهم مثلاً... نخلات؟ تضاحك الجميع وأجاب حسن غير عابىء بمزاح

https://facebook.com/groups/abuab/

عبد الفتّاح: أجل! كان عندي العشرات! لكن الأوغاد سرقوهم منّي!
فسأله مالك : أفصحْ يا حسن، هات...

خفض حسن رأسه مستأذناً بتناول بعض الجرعات، وحينما قلب كوب الشاي على فمه وشربه دفعة واحدة، سأله محسن القصّاب: أشاي صافٍ هذا، أم أنه مزغول بشيء من المُدام؟ إبتسم حسن وردّ ممازحاً : أفي نفسك أن تتأكّد منه يا قصّاب؟ خُذْ واحتكم إلى المذاق. ثم أكمل شرب شايه وقال : صدّقوا أو لا تصدّقوا، لكنهم كانوا بمثابة أبناء لي. بل واللّه، كانوا أغلى على قلبي من الأبناء. يحملون كراريسهم وكنّاشاتهم، ويتبعونني كالخراف...

قال مالك الرضيّ : معلّم في الكُتّاب؟ أنت؟
قال حسن : وما الغريب في الأمر؟ أجل. كنت...
قال المعاون وهو يحرّك بعود النار والرماد : عفواً، ولكن إذا كنتَ مولعاً بالأولاد إلى هذا الحدّ، فكيف تفسّر تعلّقك بالخمر وما أنت عليه من حال؟
قال محسن القصّاب : لا بدّ أنه الغرام. وقع في حبّ إحدى البنات، فافتضح أمره وطردوه...
قال حسن : الغرام جاء فيما بعد، بعد سنوات طوال. ولمعلوماتكم، حين كنت معلّماً، ما كنت أذوق الخمر. لكن، ادّعى الأوغاد أنني ذو تأثير سَيِّئ على التلاميذ وأني أحيد بهم عن تعاليم الإسلام. يا حسرتي على الإسلام ! الإسلام براء منهم ومن عقولهم المتحجّرة العمياء... قالوا إني أسمعهم شعراً إباحياً يفسد النفوس والأخلاق، وأزرع في رؤوسهم بذور التمرّد والخروج على القبيلة والتقاليد.... أبو نوّاس، طرفة بن العبد، عمر ابن أبي ربيعة، امرؤ القيس، الشعراء الصعاليك... يا ناس! تراثنا الشعري! تراثنا يفسد الأخلاق؟! حسناً، قلت في نفسي، تمكّنتم من القرية خلال أجيال وأجيال، لكن لن تقدروا على حسن الصوفي! فجاؤوا يتهدّدونني، فلم

أمتثل، فطردوني من بيتي ومن المدرسة، فصرت أدعو الأولاد إلى ملاقاتي سرّاً، فيقضون نهاراتهم برفقتي خارج القرية، ولا يعودون قبل المساء. بعد حين، علموا بالأمر وقرّروا قتلي وقرّر الأولاد حمايتي و...

قال مالك : أجل، وبعد؟ لماذا سكتّ يا حسن، تابع. لكنّ حسن جعل يبكي على أولاده بكاء الأولاد. يبكي حسن ولا يخجل من دموعه التي سالت على خدّيه وأمطرت صدره من دون حياء، بينما رفع مالك نظّارتيه وراح يمسحهما بعصبية بطرف صدرته وهو يتأمّل في ألسنة النار.

قال شاكر الصابوحي وكان الركاب قد نسوه بعد أن جلس منفرداً متكّئاً إلى جذع شجرة على بعد أمتار: إن اللّه لا يرشق النّاس بالحجارة، لكنه يعاقب أعداء الإسلام أشدّ العقاب !

رفع حسن الصوفي رأسه يتبيّن مصدر الصوت الذي أحسّه لا يجيء من البستان، بل من قريته تلك ومن مجموعة الأفواه التي بصقته ككلمة بذيئة تقشعرّ لها الأبدان؛ من قريته التي بلون التراب، التي بلّدها التراب، غلّفها وابتلعها ودفنها التراب، فوقف يمسح دموعَه ويتهيّأ للردّ. غير أن السائق الذي كان يتمشّى على بُعد، أطلق صوتَه وقال : يا حسن، أما زال معك شيءٌ من الخمر؟ تعجّب حسن فردّ مرتبكاً : أجل بالطبع! قال السائق : هاتِ، أعطني جرعة يا ابن الحلال، يبدو أن الانتظار سيطول بنا، وأنّها لن تلد قبل ساعات. نظر حسن إلى الرجال من حوله فرحاً. مسح مخاطه وسوّى سرواله بفخر، ثم مدّ يده إلى صدره يسحب قربته ويمشي باتجاه السائق مشية الديك والأسد والطاووس.

خرجت حسنية من وراء الستارة وهي تنشّف عرقها وتنفض خصل شعرها إلى الوراء : ما زال أمامنا انتظار، هذا ما قدّره الله،

قالت، ثم دخلت في حلقة الرجال. وقف عبد الفتّاح يمنحها مكانه على الحجر حيث كان جالساً، فشكرته بدلال وسط عيون اتّسعت تحملق فيها وتلتمع ببريق الظنون والريبة والشكوك.

قام محسن يصبّ الشاي لامرأته ويجلس بقربها القرفصاء، ثم قال محاولاً قطع الطريق أمام بذور الأفكار والنوايا الخبيثة التي ارتسمت على الوجوه : أنا أرى أنه اخترع هذه القصّة من ألفها حتى يائها... لم يعلّق الركّاب. وشعر محسن بالإحباط حين تيقّن أن سكوتهم هذا برهان على أنهم سيكونون له بالمرصاد بعد أن وقفوا علانية في خندق الأعداء، لا الحلفاء. لكن ولحسن الحظّ، لم تتأخّر النجدة في المجيء، بل هي أتته من حيث لم يكن يتوقّع، فرحّب ممتنّاً بتعقيب عبد الفتاح الذي قال : من يدري؟ قد يكون حسن الصوفي كاذباً بالفعل، او أن ما رواه ضرب من ضروب مخيّلته تعبث بها الخمرة على سجيّتها. في مطلق الأحوال يا إخوان، ينبغي الاعتراف بأن الولادة تُطلق العنان للأحلام...

وكمن أمسك كرة دخلت مرماه من باب الصدفة بعد طول انتظار، عاجل محسن القصّاب بقوله : على سيرة الأحلام يا سي عبد الفتّاح، أنت الذي تقرأ الغيب وتفسّر المنامات، هل لي بسؤالك عن واحد يعودني منذ كان عمري لا يتجاوز العشر سنوات؟ أرسل عبد الفتّاح ابتسامة في اتجاه حسنية التي ردّت له الصاع صاعين، فسال لعابه وأيقن من أن خطّته باتت على قاب قوسين من النجاح. تريّث قليلاً ثم قال : هاتِ ما عندك لنرى. تابع محسن يقول :غالباً ما أرى نفسي منهمكاً في عملي بالسلخ والتقصيب وجرد اللحم عن العظام، في الدكّان الذي يعجّ بالزبائن وأكثرهم من النساء... قاطعه عبد الفتّاح سائلاً: ترى ذلك منذ كان عمرك عشرة أعوام؟ غريب! كنتَ قصّاباً أيضاً في تلك الأثناء؟! تضاحك محسن مرغماً وردّ بالقول: تقريباً يا صاح، فأنا قصّابٌ ابن قصاب ابن قصّاب...

لعلع صوت المرأة الحامل ، تبعه صوت خدّوجة يأمر بالتنفّس

والشدّ والدفع وعدم ضم الفخذين... فقامت حسنية تستأذن على مضض، ثم مشت ببطء باتجاه الستارة : ذلك أنهن يحتجنها هناك...

المهم، أين أصبحنا؟ سأل محسن القصّاب متخفّفاً من وزن زوجته وقد نزل عن كاهليه. أجل، أنا في الدكّان بين زبائن معظمهم من النساء. وهل تعرفهنّ، سأله عبد الفتّاح، هل تراهنّ، هل هنّ عجائز أم شابات؟ لا، لا، أجاب محسن. من هؤلاء النساء لا أرى سوى الأقدام تتحرك على أرضية الدكّان. لكني في لحظة ما، أرفع رأسي فأرى عبر الباب طائراً كبيراً يحلّق على ارتفاع منخفض. أترك ما في يدي وأخرج من الدكّان، فأراه وقد حطّ على مئذنة الجامع الكبير. أركض إلى هناك، ثم أتسلّق الدرجات الحلزونية بسرعة. وحين أصل، ماذا أرى؟ للطير وجهُ امرأة آية في الجمال والكمال! وجه امرأة أبهى من بدر الزمان، فوق جسم طير عملاق. وما أن أمدّ يدي لألامسه، حتى أصحو من حلمي، هكذا في كلّ المرّات...

- ١٣ -

بعد نزول المرأة الحامل وحسنية وخدّوجة ومريم، وبعد أن أعاد العباءة إلى مالك شاكراً إياه، عاد يوسف إلى الباص.

يعرف أنهم قد تركوه في حاله حتى الآن، لأنهم قرّروا ضمناً أنه غريب عن هذي البلاد. لو يعرفون! يتحلّقون حول النار ويتحادثون. لا يجتمعون إلاّ حول مصيبة كما يجتمع الذباب حول الدبق السكّري. يلعقون المصيبة حتى يعتادوا مذاقها، ثم يبتعدون.

عبر النافذة، كان يوسف يتفرّج عليهم شاعراً بالحياد. رأى حسن يبكي، محسن يتحدّى، معاوية يغضب وعبد الفتّاح يضحك، السائق يتمشّي، مالك يطرح الأسئلة بحشريته المعهودة، وحسنية تخرج وتشرب الشاي، لتعود فتتوارى خلف الستارة بعد أن صرخت المرأة الحامل... ستلد عمّا قريب، فكّر يوسف. يقع وليدها فوق حجر وتضيء قبالته نجمة في السماء... لن يغمض عينيه. سوف يبقيهما مفتوحتين على مشهد بلون النار تتطاير منه شذرات كلام يدخل فضاء الباص ويتساقط فوق هدبيه ...

يتحدّث محسن عن الأحلام. يستمع يوسف. ويبتسم عبد الفتّاح : أمرك بسيط. إنه الجنس معقل الأسرار. لا تؤاخذني يا أخي محسن، ولكن من منّا لم يفكّر أبداً في اليوم الذي سيفقد فيه قواه؟ فهمتموني طبعاً. نشكر الله أن سبل الوقاية وتقوية الباه عديدة ،

وهذا ما يوصي به الدين ويحثّ عليه لكفاية الزوجات وتلبية حاجات النساء...

راح الرجال يمطّون أعناقهم بعد أن اشرأبّت الرؤوس في اتجاه عبد الفتّاح، حتى ضاقت الدائرة التي توزّعوا على محيطها. صمت الجميع ليفسحوا للعالِم الخبير كلّ المجالِ في إعطاء النصائح والوصفات والإرشادات. عقد يوسف حاجبيه، ثم أخرج رأسه من النافذة حينما جعلت جمل عبد الفتّاح تهرب منه وتتحايل عليه. أصاخ السمع، فوصلته نتفٌ متفرّقة من كلام مشظّى متداخل الأطراف : تغليظ الذكر نافع للرجال... الدلك بالماء الفاترة والفرك بعسل الزنجبيل... الذكر الصغير... في الجماع ... سنبل وفلفل ومسك وخولجان... إن شاء الله ... حين يكون واقفاً ... قدراً معلوماً ... ويُجعل كلّ ذلك في الشمس ... تنبغي المثابرة عدة أيام ... يعظم ويكبر ... مرارة الذئب ... العضو الراقد ... على الريق ... العسل الخاثر ... عشرون حبّة من... ومائة حبّة صنوبر ... فإنها تنال لذة عظيمة ... أجل، سمعت بذلك... الضعف والاسترخاء...

كثرت التعليقات وراحت تطنّ كالدبابير الهائجة، بينما كانت النحلات يعملن مجتهدات وراء الستارة على مقربة من القفير. تعب يوسف. ما حاجته إلى هذه الأحاديث؟ فليتركهم في حالهم، وليفكّر في ما يخصّه وينتظره...

* * *

... كان فناء الدار مربّعاً ومكشوفاً على السماء، وكانت خيطان الذهب أكثر غواية من أناملها التي راحت تطرز أطراف القماش. كانت وحيدة في الدار. كان أخوها الصغير نائماً، وكان أبوها مع عميانه في أخوية العميان.

جلس يوسف بعيداً وأخذ يراقب يدها تُدخل الإبرة، تسحب الخيط إلى الأعلى، ثم تعاود الغرز في القماش. جلس بعيداً، على مقربة، وكان النهار يميل إلى الغياب. كانت القماشة كبيرة تكسو المساحة كلّها تقريباً. كانت جالسة على الأرض، ترفع عينيها إليه بين الفينة والأخرى، ثم تعود فتغرق في الحروف والكلمات المخطوطة على الأطراف. كان يوسف بعيداً، على مقربة، وكان القماش بينهما : كفن لأبيها تعدّه قبل أن يداهمها الوقت، فتجد نفسها بين زوجها والأولاد.

كفن لأبيها، فكّر يوسف، واجتاحه حزن كثير. حزن كمن يودّع حبّاً وبركاناً اشتعل فجأة فقذف حِمَمه اللاهبة وقارب على الانطفاء. يومها، ودّ لو يستطيع الاستلقاء فوق هذا الكفن الغريب. ودّ لو يتدثّر به، فيُدفَن ويَدْفِن أباه. لو يستلقي. لو ينام نوماً عميقاً لا يتبعه أي استيقاظ. كفن ليوسف. لأولاد أحبّهم وأنجبهم منذ أيام. للأب الذي لن يكونه. للأب الذي لم يكن له. لأطفاله الذين لن يروا النور. وللطفل الذي لم يكنه هو أبداً.

وقف يوسف يستأذن ويهمّ بالانصراف، فدعته إلى البقاء خلف حمرة وجنتيها الخجولتين، ثم أضافت أن أباها لن يتأخّر في الرجوع. لكن يوسف كان مطفأ وبارداً، فقام وقال إنه سيسلك الدرب التي تقود إلى جمعية العميان، وربّما عاد في المساء...

غادر يوسف الفناء والبيت والدرب وكل المدينة الصفراء. غادر سيف الدين مجدّداً، ثم سمع صوت محسن القصّاب يلعلع بالصراخ : ومن قال لكم إنه يقصدني أنا بهذا الكلام؟ وعبد الفتّاح يقول مصالِحاً : معه حقّ، ثم إن الرجولة يا معاوية، لا تُقاس بما يخفيه السروال. وهاك الدليل ... وأشار عبدُ الفتّاح إلى رأس حسنية الذي خرج عن حدود الستارة حين قامت قامتها الفارعة وأطلقت : هه، أما انتهيتم بعد من تفسير الأحلام؟

تضاحك الركّاب لهذا الظهور المفاجيء وقام بعضهم يربت على ظهر محسن القصّاب ويدفعه ذات اليمين وذات اليسار، بينما هو حائرٌ فيما تكون ردّة فعله إزاء هذا المزاح. قال المعاون : من أين أنت، من الجنوب؟ فأجاب محسن : لا. أنا من الشمال، لكن نقصد عائلة زوجتي في الجنوب. لِمَ هذا السؤال؟ رفع المعاون كتفيه وقال : هكذا، ثم نظر إلى عبد الفتّاح رغبة منه بمتابعة الحديث، فوجده قد أدار ظهره واختفى وجهه في الظلام.

- ١٤ -

- عمتم مساءً... خير إنشاء الله !

كان عائداً بقطعانه يتقدّمها رنين جرس تيسه الأسود الكبير، وعواءُ كلبه الشرس الذي وقف مكشّراً عن الأنياب. نهره واعتذر، فهدأ الكلب وتقدّم هو يدكّ عصاه في التراب. تأمّل في الوجوه التي ألهبتها النار، فوجدها بدورها تتأمّل فيه. دفع السائق القُربة إلى صدر حسن الصوفي، ومشى وفي نيّته الإجابة عن أسئلة هذا الغنّام، قبل أن يتلقّفه أحد الركّاب.

استمع الراعي باهتمام بالغ إلى كلام السائق، ثم رفع غطاء رأسه ودسّ أصابعه بين كتل الشعر الكثيف يشفي غليله بالحكاك. قال إن مسكنه ليس بعيداً وإنه، لولا ضيق المرأة الحامل، لدعاهم جميعاً لقضاء الليل في ضيافته. وبما أن ذلك مستحيل، فبودّه أن يقدّم هدية للوليد: رأس غنم. اذبحوه على شرفه وسوف أقود قطعاني إلى الحظيرة، أبيّتها، وربما عدتُ إليكم.

مشى الغنّام، إلى أن توقّف كمن تذكّر أمراً وقال : ألا توصونني بإحضار شيء ما؟ تطلّع السائق حواليه يسأل الركّاب أن يستفيدوا من هذا العرض بسرعة، فهبّ محسن قائلاً : مهلاً، سوف أستشير حسنية فهي الأدرى بما تحتاجه النساء في مثل هذه الأحوال. تبسّم

الراعي فيما كان يردّد بصوت مسموع وكأن لنفسه : لم تخلُ الدنيا من أولاد الحلال... بارك الله، إلى أن عاد محسن يقول : يطلبن ثياباً للوليد... هذا إذا كان عندك أولاد. ضحك الغنّام وأجاب : لا تخف يا صاحبي، فليس أكثر من الأولاد... بالسلامة إنشاء الله.

وثب معاوية على الغنمة يمنعها من الإفلات وهو ينادي لاهثاً : إليّ يا قصّاب، وقد اختلط ثغاؤها بتأوّهات المرأة الحامل وصلوات مريم التي ارتفعت شبيهة بالنواح. ركض محسن يجلب عدّته، بينما اقترب المعاون يساعد معاوية ويحثّ هو أيضاً محسن على الإسراع.

وقف مالك الرضي يتأمّل مشهد العراك. شعر بالغثيان يخبط معدته ويوقظ فيه ذكرى الأصوات التي كانت تضجّ بها المحكمة عندما يواجه الموقوفون قرار الحكم بالإعدام. تصبّب العرق منه، فقرّر أن يسرح في البستان متفادياً منظر دماء لطالما كان يفوق قدرته على الاحتمال.

ارتعش بدنه لقشعريرة اخترقته كنصل سكّين حين تناهى إلى سمعه خوار الغنمة تخرّ صريعة بسكّين القصّاب. تدثّر بعباءته بعد أن أحكم لفّها حول كتفيه، فخرجت إليه برائحة جسم غريب... يوسف، أين عساه يكون؟! لم يره بين الركّاب المتحلّقين حول النار... له وجه محكوم بالإعدام. الوحشة نفسها، الانكفاء والانسحاب. الصدّ والانغلاق والانزواء. الحزن القاتل نفسه. الحزن الذي هو أكثر هولاً وفظاعة من كل الجرائم والجنحات. الحزن- القاتل- المهووس- مصّاص الدماء- الجلاّد- المتلذّذ بالتعذيب والتقطيع والتشريح. الحزن-سفّاك الدماء-الطاغية-القاتل عمداً وعن سابق تصميم، أرواحاً بالعشرات...

رفع مالك نظّارتيه وأحسّ بوحشة العالم كله ترزح على صدره. لا يعرف عنه شيئاً، أو ما يعرفه لا يتعدّى القليل اليسير. لن يقع في

مطبّ هذا الغريب ووجهه الغادر. وجهه المطفأ، البارد، القتيل. لن يسمح لوجهه المستلقي من دون حراك، بالمراوغة ثم بالانقضاض عليه. يحتمي. يحفر خندقاً يأويه. يبني سوراً منيعاً. يكدّس أكياس رمل. يقطع كل بصيص نور. يدهن جسده شحما أسود. يقبع بين الصخور. يتمرّس. يتأهّب. يعدّ أسلحته.يشحذ سيوفه. يشهر دروعه. يخرج مدافعه. يتموّن بالذخيرة وكل أنواع الرصاص. يترقّب. يسهر. يحرس...

يوسف؟ عاشت الأسماء! تشعر بالبرد، لمَ أعدتَها إليّ إذن؟ العباءة. رائحتك فيها. بين الحموضة والمسك. بين الصدأ والأعشاب. حبيبات جلدك والعرق الممتزج بالملح والغبار. عرق الذكورة. بين التشهّي والنفور. بين التلذّذ والنكهة الحارقة. يوسف. أين أنت، ومن أين يجيئك كلُّ هذا البرد؟ لم أرك بيننا حول النار. عدتَ إلى الباص؟ أجل، أراك الآن. رأسك في النافذة . أتبيّنك بصعوبة. هل تنام؟ إسمع، سوف أودّعك منذ الآن. أغيّر مقعدي فأجلس في مكانٍ يبعدني عنك. بعيداً عنك. بعيداً. ما لي ولأوجاع القلب؟ مشوارٌ درب، ومن يدري متى يحين موعد النزول. من يدري إلى أين تقصد وما هو مبتغاك. سألتني ما أقرأ وأجبتك، ثم انسحبتَ مقفلاً وجهك وعينيك. يوسف؟ فليكن! إسمٌ بين الأسماء!

عاد مالك إلى حيث الركّاب متفادياً النظر إلى ضوءَي الباص اللذين اشتعلا ليتيحا لمحسن أن يقوم بعمله بعد أن تشكّى من العتمة التي تسيطر تماماً على البستان. سمع السائق يقول : لا تُطِل، وإلاّ فرغت البطّارية وعلى الرحلة السلام!

جلس شاكر الصابوحي على مقربة من النار. مدّ يديه يتدفّأ وهو يستمع إلى وقع سكاكين راح محسن يشحذها كأنها نصال حِراب تقع على الحراب، ففركهما بنشاط استعداداً للتلذّذ بالشواء. اقترب منه عبد الفتّاح يربت على كتفه ويهمس: صبراً يا شيخي، راح

الكثير ولم يبقَ سوى القليل. أعانك اللّه على الصبر والانتظار.

صفن شاكر لثوانٍ، ثم تبسّم وهو يرفع وجهه إلى السماء. لقد تكاثر الأعداء من حوله وحريّ به أن يقوم بمدّ الجسور لإعادة المياه إلى مجاريها، خاصة مع عبد الفتّاح، لذلك قال : أخبرني يا ابن الحلال، أما من جديد يخصّ النساء؟ لا، أجاب عبد الفتّاح، ثم استدار ناحية الستارة فطالعه طيف حسنية وقد تضخّمت استداراته وبدا كعملاق. كانت تنحني أحياناً، تتمشّى، ثم تعود إلى الجلوس، فيرى جسدها أشبه بخارطة يعبرها باص رغباته من الشمال إلى الجنوب. أعاده مشهد اللحم والدماء والأحشاء، إلى ما كان قد تخيّله عن حسنية في دكّان زوجها القصّاب، فتجمّع اللعاب تحت لسانه وتسارع نبضه وعلا كدقّ طبول. نظر حواليه يتأكّد من أن أحداً لا يراه، فوجدهم منهمكين في إعداد العشاء، في جمع الحطب وابتكار رافعة تحمل الغنمة وتثبّتها فوق النار للشواء.

اقترب عبد الفتّاح من الستارة على مهل، ثم تنحنح وقال بصوت خفيض : أيسير كل شيء على ما يُرام؟ نهضت حسنية كمن لدغها ثعبان تطلّ برأسها من فوق الحبل وتقول : أهلاً. كما ترى، ليس أمامنا للأسف سوى المزيد من الانتظار. ابتسم عبد الفتّاح وغمز وقال : إذن، لا تحتجن شيئاً؟ فابتسمت حسنية وغمزت وقالت : نحن لا، وأنت؟ بانت أسنان عبد الفتّاح كاملة وقد قرّر أن يلعب كل أوراقه دفعة واحدة، فقال هامساً : رضاكِ يا ستّ الدلال! ثم رفع صوته وأضاف : حسناً، سأذهب أتمَشّى عند تلك الأشجار. ولم ينس أن يُتبِع جملته الأخيرة تلك بإشارة من رأسه وبما معناه : سوف أنتظركِ هناك.

نقّلت حسنية عينيها بين قامته المبتعدة ومنظر زوجها وبقية الركّاب، ثم عادت إلى خدوجة والمرأة الحامل وهي تداري انفعالها بالسعال. سألتها مريم وقد ضرب النعاس عينيها : من كان ذاك؟

فأجابت : زوجي. يسأل إن كنّا نحتاج شيئاً وإن كانت الأمورتسير على خير ما يرام...

فتحت المرأة الحامل عينيها، فمدّت خدّوجة منديلها المبلول بالمياه تمسح عرقها وتسوّي فوقها الغطاء : لا بأس عليك. إرتاحي. لِمَ البكاء؟ فكّري في وليدك، حماكما الله. روح تُزهق وأخرى ترى النور، هكذا قدّر الله... ثم التفتت إلى حسنية وأردفت : كان هذا زوجك؟ خيّل إليّ إنه صوت صاحب المسبحة الكبيرة الصفراء، ما اسمه...؟ أجل، عبد الفتّاح. غريبٌ هذا الشبه بين الأصوات!

شعرت حسنية بضرورة حصر سمّ العقربة قبل أن يباشر الانتشار، فعاجلت بالردّ تقول : بالفعل، يخلق من الشبه أربعين، في الشكل والأصوات والطِباع! ثم سكتت محملقةً في عيني خدّوجة، معلنةً عن كامل استعدادها، فما على الأخرى سوى تحديد نوعية السلاح.

انسحبت خدّوجة على رؤوس أصابعها من المبارزة التي افتعلتْها، فقالت وهي تتجنّب النظر الى حسنية : جُعنا يا أختي! عساهمْ يحفظون حصّتنا من الشواء... أرأيت يا مريم؟ لا يتخلّى الله عن عباده وها هو قد أرسل إلينا هذا الغنّام. ثم التفتت إلى حسنية وقالت : أنظري ابنتي المسكينة، تكاد تسقط من التعب والنعاس. فاجأتها العادةُ الشهرية قبل موعدها وهي ليست معتادة على السهر الطويل. ولِمَ تسهر البنات؟ إلاّ إذا كانت رؤوسهنّ مملوءة بالأفكار التي تعرفين... أوصلْها إلى عريسها وارتاح. لا احتمل تعبَ الدماغ... لو لم يكن الفِراش مغلّفاً بالنايلون، لظنّ أهل العريس اني اجهّزها بأثاثٍ عتيق...

أنهت خدّوجة كلامها وقد أكثرت منه لرغبتها بالقضاء على التوتّر الذي نشأ بينهما، فشعرت حسنية ببعض الارتياح. لقد

تمكّنت من دحرها، مؤقتاً. لكن الخطر الحقيقي، ذاك الذي لا يجيء إلاّ من النساء، فلا يزال شبحه متوارياً خلف هذه المبادرة الإيجابية بالفعل، لكن المفاجئة بسرعتها في الانسحاب. تعرف حسنية أنها نجحت في ردّ هجومها الأوّل، غير أن هذه العجوز الشمطاء أذكى من أن تضرب قبل أن تضمن الفوز مئة في المئة. طبعُها الغدر هذه اللئيمة. وما أدراني ما تبيّته لمرّات قادمة، إذ لن توفّر فرصة لعضّي في الموضع القاتل الحسّاس. آه من غيرة النساء...!

وتنبّهت حسنية إلى أن خدّوجة قد قفلت كلامها بانتظار ردّ يُعلمها بالموافقة الضمنية على الهدنة، فقالت : لمَ لا تذهب ابنتك فتتمدّد في الباص وترتاح حتى ينضج الشواء، فنناديها لتناول العشاء؟

إبتسمت خدّوجة بما لا يتلاءم مع كلام حسنية، ثم هلّلت : يا لهذا الاقتراح الذكي! واللّه معك كامل الحقّ! قومي يا ابنتي، قومي وافعلي ما نصحتك به خالتك حسنية. نحن لا نحتاجك هنا، فاذهبي وتمدّدي في الباص.

تلكّأت مريم، ثم رمت أمّها بنظرة ملؤها الاحمرار والحيرة والارتباك، فسارعت حسنية تأخذها من يدها وتقول : لا تخافي. سأصحبك انا وأُعلِم الجميع بأنك ستصعدين إلى الباص لتنامي فيه...

حين خرجتا من وراء الستارة، كانت اضواء الباص قد صنعت نهاراً ينير الوجوه ويعمي الأبصار. إتّجهت امراة القصّاب إلى السائق تطلعه على ما قرّرته وخدّوجة بالنسبة للفتاة، فوافق دون تردّد ومشى معهما. فتح الباب وصعد وهما وراءه، إلى أن فوجيء بوجود يوسف : منذ متى وأنت هنا؟ سأله، فأجاب : منذ البداية. شعرت بالبرد فصعدت. نظر السائق إليه محتاراً ثم قال : إذهب

إلى المعاون واطلب منه بطّانية، هكذا تشاركنا العشاء. تكاد المسكينة تقع من التعب والنعاس، لذا سنترك لها الباص حتى تنام. مهلاً، سأطفىء الأضواء وليصطفلوا. بطّاريتي قبل الشواء، بل قبلهم جميعاً. لسنا هنا للبسط والانشراح...

قالت حسنية : هه؟ مطمئنّة؟ تريدين شيئاً بعد؟
أجابت مريم : إبقي معي للحظات.
ضحكت حسنية وقالت : يا ويلي من دلع البنات! حسناً، للحظات فقط. ينبغي أن أعود وإلاّ قلقت أمّك عليّ!

خفضت مريم عينيها وبدا عليها الإحراج، فاقتربت حسنية وجلست بالقرب منها تكفّر عن ذنبها وتقول : حزينة يا مريم لأنك تأخّرتِ عن عريسك، أم قلقة على الفِراش؟ فسألت مريم : خالتي حسنية، عندك أولاد؟ فتنهّدت حسنية وقد تبدّلت ملامحها فجأة، ثم أردفت :

– لا يا مريم... للأسف، لا.
– وسي محسن؟ ألم يتزوّج عليك ثانية؟
– يتزوّج عليّ ؟! ينبغي أن يأخذها حاملاً سلفاً كي تنجب له!
– ...
– ألم تريه يا مريم؟ أفيه شيءٌ من الرجال؟
– ولِمَ تزوّجته إذن؟
– بسبب الشمال...!
– لم أفهم.
– حين جاء يطلب يدي، قال أبي : هذه فرصتك يا بنت لرؤية العالم ولمغادرة هذه البِقاع الغارقة في الرمال. كان محسن قد جاء يشري قطعاناً، فرآني ودفع مهراً كبيراً صمّ الآذان عن رفضي الزواج به... والنتيجة؟ غرقتُ في دكّان اللحم بين البقر والخراف...
– على عكسك، أنا سأستقرّ في الجنوب.

– ألف مبروك يا مريم! ينبغي أن أقوم.
– اسمعي، كيف وجدتِ الجهاز؟
– ممتاز!
– فقط؟
– لا تخافي. سيفرحون به ويُجلّونك بين النساء. صدّقيني، أنا الأدرى بهم. بالنسبة إليهم، هذا جِهاز أمراء... هه، أهذا كل شيء يا ستّ مريم؟ ألديك أسئلة بعد؟
– لا ...
– أسترني يا ربّ من دلع البنات! ألم تحدّثك أمُّك عنها؟
– ما هي؟
– لا تحتالي عليّ يا بنت! خالتك حسنية بئرٌ عميقة تحفظ الأسرار.
– تعرفينها أمّي!
– أجل، أعرفها... اسمعي، في البداية قد تشعرين بالقرف والاشمئزاز وهذا طبيعي. المهمّ ألاّ تركني إلى ردّة فعلك وانطباعك الأوّلين... وربمّا خبت حتى في المرّة الأولى، لكن مع المِراس، ستكتشفين أحاسيس ترفعك إلى سابع سماء. أرجو أن يكون عريسك ضليعاً بهذه الأمور. لكن ما همّ، أنا دائماً كنت أقول إن الفِراش هو مملكة المرأة قبل الرجال...

غاصت حسنية في الحديث ووجه مريم في الحُمرة، حتى نسيتا معاً أنهما في الباص. كانت الأولى تستعدّ كمن يحمّي فرناً سيشتعل بعد قليل، والثانية تجدّف قارباً سيحملها عمّا قريب إلى مصير مجهول. سكتت حسنية بعد أن استولى على صوتها شيء من اللهاث، ففكّت منديل رأسها تنفض شعرها وتسرّحه بأصابع يدها، إلى أن أعادته وعقدته وهي تقف إنذاراً بأن موعد ذهابها قد حان.

قالت مريم : خالتي حسنية، أنا أيضاً بئرٌ عميقة تحفظ الأسرار!

فتعجبّت حسنية من كلامها وسألتها بإشارة من عينيها أن تعمد إلى مزيد من الإيضاح، فتابعت مريم تقول :

– أعني، لو طال غيابك، فأنت معي في الباص!
– لم أفهم يا مريم، فإلامَ ما تلمّحين؟
– أنت الآن معي، أليس كذلك؟
– أجل.
– رآك السائق، وذاك الغريب. رآك الجميع...
– والمعنى؟ أوجزي يا فتاة!
– لو حصل مكروه، لا سمح اللّه... أعني، لو سألني أحد سأقول : خفتُ البقاء وحدي، فرجوتك أن تلازميني حتى أنام... فهمتِ الآن؟

ابتسمت حسنية بادىء ذي بدء. لكن، ما لبثت أن تحوّلت تعابيرُ وجهها إلى شيء من التفكير والعبوس، فرفعت يدها تقرص خدّ مريم بخفّة وهي تقول : من أين لكِ هذا الدهاء؟ إنسي هذه القصّة ونامي، وأنا سأفكّر في الموضوع. هاتي قبلة أوّلاً. حسناً، نوماً هنيئاً يا مريم، تصبحين على خير... قامت ومشت لتنزل من الباص، فنادتها مريم : خالتي حسنية! لم يكن ذاك صوت سي محسن، أليس كذلك؟ فردّت حسنية : لا يا مريم، ثم نزلت وأطبقت وراءها الباب.

— ١٥ —

حائراً متردّداً وقف يوسف بعد أن نزل من الباص : هل يذهب بعيداً في ليل البستان، أم يلتحق بهم منضمّاً إلى حلقة الرجال؟ منظر النار التي تجمّرت وشعّ وهجها في الظلام، حسم الأمر عنه. هو دائماً ذلك البرد الذي كان يختار عنه.

اتّجه يوسف إلى حيث كانت النظّارتان. تبسّم لهما بإيجاز، ثم جلس بقربهما. فوجيء مالك بظهوره المفاجئ وأحسّ بلهيب يكوي قلبه ويدكّ ركبتيه، فشكر عتمة سترت شحوب وجهه، لهاث صدره ووهن مفاصله عن الآخرين. التفت إليه يوسف يدعوه إلى افتعال أي حوار، إلاّ أنه استمرّ محملقاً في النار وقد قرّر ألاّ يرأف لحاله كي لا يقع في مطبّ وجه صار يتقنه عن ظهر غيب. بقيت عينا يوسف معلّقتين فيه تنتظران. تنتظران معلّقتين، حتى خابتا واستدارتا لتحطّا على وجه شاكر الصابوحي المرتفع إلى السماء، لا لصلاة أو ابتهال، وإنما لتلقّف نتف كلام يتطاير فوق رأسه كالرذاذ.

طارت عينا يوسف من وجه الشيخ الضرير إلى قامة محسن القصّاب، فوجدتاها تتصارع مع كتلة اللحم ساعية إلى شكّها بقضيب حديدي بالتآزر مع معاوية المطماطي، المعاون وحسن الصوفي، وتحت إشراف السائق الذي جعل يعطي التوجيهات .

إلى غصنين ضخمين شكّا في التراب، أُثبت طرفا القضيب،

وراحت رائحة الشواء تنبعث في المكان. قال حسن الصوفي معلّقاً على وجود يوسف بينهم : أنت، لم أركَ قبل الآن! فأجابه معاوية : كيف تراه وأنت لم تصحُ منذ ركبنا الباص؟! ضحك حسن وتابع : أحسد هذا أم ضيق عين ، ثم عاد إلى يوسف وأضاف : هي رائحة الشواء التي جعلتنا نتشرّف بحضورك، أليس كذلك؟ قلْ يا سي محسن، أما زال أمامنا انتظار طويل؟ نصف ساعة وأبدأ بتوزيع بعض الشرحات، أجاب محسن، ثم التفت إلى يوسف وقال : أتعود من سفر طويل؟ أجل، أجاب يوسف، من اسطمبول... نظر الركّاب إلى بعضهم مستغربين، ثم عادوا إليه مجدّداً ينتظرون منه متابعة الكلام.

قال شاكر الصابوحي : عاصمة من عواصم الإسلام ... أكنتَ هناك لدراسةٍ ما؟

قال يوسف : بل لعمل. أنا أقيم في سويسرا...

قال محسن القصّاب : سويسا؟ وأين تقع هذي البلاد؟

قال حسن الصوفي : في أوروبا يا جاهل، واسطمبول هي عاصمتها!

قال محسن القصّاب : أتهزأ مني؟ ما دخل اسطمبول في السويسا هذه؟ اسطمبول تقع في بلاد الشام، ألم تسمع أنها عاصمة من عواصم الإسلام؟

قال حسن الصوفي : الله الله! إسطمبول طلعت في بلاد الشام. في صحتّك يا سي محسن! بالفعل ضليع في الجغرافيا ومواقع البلدان!!

قال شاكر الصابوحي : إسطمبول هي عاصمة تركيا، وسويسرا مجاورة لبلاد الفرنسيس. أفهمتَ الآن يا سي محسن؟ دعوا الرجلَ يتكلّم يا جماعة ولا تقاطعوه.

قال معاوية المطماطي : هل أنت من هذي البلاد يا سي يوسف؟

قال يوسف : نعم، ولا...

قال معاوية المطماطي : ما معنى هذا؟ أمن بلادنا أنت أم لا؟
قال يوسف : وُلِدت هنا، لكن هاجرت صغيراً.
قال شاكر الصابوحي : أنت إذن من إخواننا المهاجرين.
قال السائق : ومن أية قرية تجيء؟
قال يوسف : أنا من بني ...
قال السائق : أهلاً بك. أهذه أوّل عودة لك؟
قال يوسف : أجل، هي المرة الأولى بعد طول غياب.
قال محسن القصّاب : ياه! ولِمَ كلّ هذا الغياب؟
قال يوسف : الدراسة أوّلاً، ثم الوظيفة وأحكامها.
قال شاكر الصابوحي : وما تكون مهنتك يا بنيّ؟
قال يوسف : لا أعرف كيف أقولها بالعربية. مهندس مائي، ربما؟
قال حسن الصوفي : مهندس ماذا؟
قال يوسف : مائي!
قال حسن الصوفي : بحياتي لم أسمع بمثل هذا الاختصاص!
قال معاوية المطماطي : أصدّقته يا رجل، إنه يمزح. ولو؟ أتمكن هندسة المياه؟ لا بدّ وأنه يعمل في مشروع بناء سدٍّ أو شيء من هذا القبيل. لكن وكما تعلم، أهلنا يخجلون من الأعمال اليدوية فيتحوّلون جميعاً إلى مهندسين! أليس كذلك يا سي يوسف؟ باللّه عليك ، اصْدُقْنا القول.
قال محسن القصّاب : وما أدراك أنت يا معاوية؟ غريبٌ أمرك يا أخي، أشكّاك أنت إلى هذا الحدّ؟ لماذا لا تصدّق أبداً ما يقوله الآخرون؟ منذ قليل، اتّهمتَني أنا بالكذب. ما لكَ هكذا تتّهم كلّ الناس؟ هذا عيب واللّه! قليلاً من الاحترام... !

شعر يوسف بالحرج وسيطر على الجوّ شيءٌ من التوتّر والاحتدام، بعد أن ظهر الغضب جلياً على وجه معاوية الذي ضرب كفّا بكفّ وهو يردّد : لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه! وما دخلك أنتَ في ما أقول؟ أتودّ تربيتي يا ابن الحلال؟

تطلّع يوسف إلى مالك الرضيّ يستنجد به، وكان مالك قد بقي صامتاً ومحايداً خلال كامل الحوار. نظر مالك إليه، فلان قلبه وقرّر مدّه بيد العون.

قال مالك الرضي : عفواً يا إخوان! أتسمحون لي بالكلام؟

قال حسن الصوفي : تفضّل يا أخي مالك، فكلامك دائماً موزون.

قال مالك الرضي : المهندس المائي، إذا صح استعمال هذه التسمية، هو الذي يشرف على كل ما يتعلّق بمشاكل المياه. إنه اختصاص موجود بالفعل، ولا ضرورة للتشكيك بما قاله الأخ يوسف.

قال معاوية المطماطي : أعطنا أمثلة. يا أخي، أنا عقلي صغير. اشرحوا لي. نوّروني. سايروا قلّة ذكائي وأفهموني!

قال مالك الرضي : هندسةُ المياه تقتضي حلّ كل المشاكل المرتبطة بنقصان المياه او فيضانها. مثلاً، العمل على تخزين المياه في مناطق جبلية لا تهطل فيها الأمطار غالباً. مثلاً، إيصال المياه عبر القنوات إلى مناطق تفتقد الأنهار والآبار... مثلاً، إنشاء بحيرة اصطناعية في مناطق قاحلة متصحّرة.

قال السائق : بالطبع، الا تذكرون قصة البحيرة التي ارادوا إنشاءها في الصحراء؟

قال محسن القصّاب : بحرٌ في الصحراء؟ أي بحر، أية صحراء؟

قال السائق : بحيرة يا قصّاب، بحيرة! الحاصل يا سي يوسف، البلاد التي تحيا فيها... أبعيدة هي عن بلاد الفرنسيس؟

انتظر السائق، ومعه الآخرون، الردّ طويلاً. لحظ مالك شحوب يوسف وانسحاب الدم من عروقه، فطلب من الرجال الصمت وسأله عمّا به. لا شيء، أجاب يوسف، فخلع مالك عباءته ورماها عليه. قفز

حسن عارضاً قُربته : خذ واشرب جرعة، ليس أفضل من الكحول لمثل هذه الحالات؛ وغمز السائقُ المعاون بأن اذهبْ إلى الباص في الحال وجئه ببطّانية على وجه السرعة؛ فيما قام معاوية يتفقّد نضوج اللحم ويشدّ انتباه محسن إلى أن النار قد بدأت تهمد تحت الشواء. عاد المعاون بغطاء، فخلع يوسف عباءة مالك وأعادها إليه. سأله السائق : أتشعر بأنك أحسن حالاً؟ أجل، أجاب يوسف، ثم نظر إلى مالك وقال : شكراً. هزّ مالك رأسه صامتاً، ثم رفع نظّارتيه يداري حرجه وارتباكه وشوقه ورغبته العارمة في ضمّه اللحظةَ إليه.

- ١٦ -

- مريم، يا بنت اللئيمة، ما الذي دهى بعقلك كي تشرِّعي عليّ هذا الباب...؟

مشت حسنية باتجّاه الستارة بعد أن نزلت وأطبقت وراءها باب الباص. هل يؤمن لفتاة مقبلة على الزواج، حين تكون أمّها خدّوجة الاخضر، خدّوجة الداهية، تلك العجوز الشمطاء؟

هه، نامت؟ سألتها خدّوجة قلقة، فانتحت بها حسنية جانباً كي لا تسمعها المرأة الحامل وأجابت : أما زالت على حالها؟ ما الذي سنفعله إن طال بها الأمر ولم تَضَعْ قبل ساعات؟

جلست خدّوجة بقربها أرضاً، وحين قرأت على وجهها امارات قلق واضطراب، اعادت سؤالها ملهوفة : لم تُجيبيني يا اختي. مريم؟ هل نامت؟ أرافقتها حتى الباص؟

أجل، أجل، أجابت حسنية، لكن...

لكن ماذا؟ سارعت خدّوجة إلى القول، أوقع لها مكروه؟

لا سمح الله، ردّت حسنية. كنت افكّر فقط في أنها رجتني أن أبقى معها. لكني اعتبرته نوعاً من دلع البنات وغادرتها قبل ان تغفو . الآن، أرى أن مسألة بقائها وحيدة في الباص... اعني، تعرفين إبليس. وابنتك اسم الله عليها، لا ينقصها الجمال ولا...

انتصبت خدّوجة واقفة، خبطت رجلها في الأرض وهي تستشيط غيظاً : لا، هذا كثير! إفتحي عينيك وأذنيك على اتّساعها واسمعيني جيّداً : لو سُئل الشرف عمّن يكون أشرف منه، لأشار إلينا من دون تردّد ولقال...

وقفت حسنية بدورها وأخذت خدّوجة من كتفيها تُجلسها وهي تردّد : معاذ الله! فلأمُت اللحظة إذا كنت ألمّح الى شيء من هذا القبيل! فقط، هي مخاوف النساء. كأنها ابنتي، قسماً بالعليّ العظيم! دخلتْ قلبي مذ رأيتها... كل ما في الأمر أنها وحدها في الباص، ونحن وراء الستارة، والرجال... تعرفين دناءة نفوسهم وسفالتهم في بعض الأحيان...

نفد صبر خدّوجة فلم تنتظر أن تُنهي حسنية كلامها، بل اكتفت بهذا القدر من التحذير لتقوم كالمسعورة وفي نيّتها أن تذهب في الحال إلى الباص، فترجع بابنتها وتدرأ عنها الأخطار...

قالت حسنية : إلى أين؟

قالت خدّوجة : أنا لا أحتمل شغل البال! فلتبق ابنتي بجانبي ولْتَمُتْ حتى من التعب والنعاس، فالموت أشرف من العار !

صرخت حسنية : وتتركينني وحدي ؟!

أجابت خدّوجة : هي لحظات وأعود.

قالت حسنية : مهلاً، ابنتك في الميعاد والبرد يضرّها. لا تنسي أنك ستسلّمينها إلى عريسها عمّا قريب!

قالت خدّوجة : لا يهمّ!

قالت حسنية : لو رآها الجنوبيّون شاحبة أو واهنة، لاعتبروها مريضة معتلّة سقيمة لا تصلح للزواج.

قالت خدّوجة : فليتجرّأوا ويفتحوا أفواههم بأيّ كلام!

قالت حسنية : ولأعادوها إليك مردودةً مع الشكر...

قالت خدّوجة : ماذا؟ أتمزحين؟

قالت حسنية : صدّقيني! هم أهلي وأنا الأدرى بهم... ثم ما بك

تتصرّفين هكذا وكأنّ الشرّ قد وقع لا سمح الله؟

قالت خدّوجة : ومن يعرف؟ المصيبة تقع في ثوان...

قالت حسنية : صلّي على النبي يا امرأة واهدأي... المسكينة، دعيها ترتاح قليلاً، ألا يكفيها ما ينتظرها من هموم ومشاكل عندما تصلان؟ إسمعي، أنت لا تحتاجينني ها هنا على ما أرى. أنا سأروح إليها وأطمئنّ على حالها. فإن وجدتُها صاحية، بقيتُ معها وأوكلتُ أمر حراستها والسهر عليها الى السائق، فهو على ما يبدو أهل للثقة وابن حلال...

سارعت حسنية تهمّ بالانصراف قبل أن تبدّل خدّوجة رأيها. وما أن مشت بعض الخطوات، حتى استدارت ناحيتها تقول : لو بان من أمر هذه المخلوقة شيء، ارمي صوتاً وأحضر إليك في الحال.

- ١٧ -

رآها مقبلة من البعيد...

لم يرَها فعلاً، بقدر ما حزر خطواتها يرتعش من تحتها التراب.

لا حت في الظلام. توقّفت لثوانٍ، ثم انحرفت.

خبط قلب عبد الفتّاح، فمدّ يده إلى أحد الجذوع يستعين به ويرجوه ألاّ تغيّر رأيها.

اختفت من أمام ناظريه واستولت الحيرة عليه حين استمرّ يسمع وقع خطاها يجيئه من الاتّجاه المعاكس لذاك الذي كان ينتظر قدومها منه.

اضمحلّ وقع الخطى، فاحتار هو في أمره : أيسلك الى حيث بانت له، أو في الاتّجاه الذي خُيّل إليه أنها سلكته منذ قليل؟

اتّسعت حدقتا عبد الفتّاح وتقوّست حواسه كظهر قطٍّ برّي يستعدّ للانقضاض. أصاخ السمع، وحين شعر بوجود ما في الخلف، استدار منتفضاً وقد خلع الخوفُ ممّا سيراه قلبه...

كانت له بالمرصاد. بصيص عينيها جعله يقدّر المسافة التي

تفصله عنها والموضع الذي تترصّده منه.

عيناها فيه. عيناها لا تتحرّكان. عيناها تترقّبان. عيناها تضبعان. عيناها تفترسان. عيناها تنقضّان. عيناها تعضّان. عيناها تنهشان. عيناها تزأران. عيناها تنشبان البراثن في اللحم، تقطّعان الشرايين فتنفجر الدماء... عيناها تلعقان وتقولان : جاء دورك يا عبد الفتّاح.

صوت تنفّسها في الظلام. لهاثها في وجهه. رائحتها. من أين يبدأ؟ وبرها الطويل الغزير. وجهه الذي يتمرّغ في الشعر واللحم والثياب. يدفعها إلى الوراء. يرغب في إلقائها أرضاً ليبدأ بالافتراس...

تُثبت قائمتيها في الأرض. لم تربح جولتكَ بعد. أقنصتْني. هاجِمْ. إنقضّ. ناورْ قبلاً. أجل. اضغطْ ها هنا. بعد...

تفحّ. فحيحها في أذنيه. على رقبته. في صدره. يداه فيها. فوق الثياب. تحت الثياب. تحت. لسانه في فمها. فوق اللثة. على الأسنان. تحت اللسان. لسانه ثعبان ينفخ سمّه في فمها. لسانه ثعبان يرقص فوق الشفتين. يتسلّل إلى الجوف الرطب الدافىء. يزور الداخل الطريّ ويتزحلق على الجدران الملساء الناعمة كالحرير.

لسانها يجيبه. يخاطبه. يخترع الحوار. لسانها يتلوّى فوق ذقنه. على أرنبة الأنف. ينزل إلى الصدر ويعضّ الحلمتين. بوركتِ يا حسنية. يا لبوة. يا امرأة. يا أمهر النساء. يا وحشة. يا مفترسة...

إصبري. دعيني أستعيد أنفاسي. مهلاً. دَوْري الآن. دعيني أذوقك. أتلذّذ بهذا الطعم. أغبّ. أشرب. أشتمّ...

أجل، حشرِجي. تأوّهي. إنّي. اختنقي. اجعري. اشهقي. غرغري

يا امرأةَ القصّاب. خذي. لا تعضّي. عضّي. خرمشي. إنتفضي. أجل يا حسنية. التقطيه بيديك. داعبيه. مرّغيه على بطنك. في الشعر. على الأثداء. أنا سأعلّمك الرجال...

أجل. بكلتا يديك. بفمك. بالأسنان. آه يا حسنية...آه ... سأدكّه فيك. ارفعي وسْطك. ارهزي يا حسنية. ارقصي الآن. زغردي. هوجي. اعصري. وَلْولي. انقبضي. اعْلي. انخفضي. مهلاً... أجل يا حسنية. خذي. أجل. ابعطي. ارتعشي. نازعي. تألّمي. إنّي. اصْرُخي. عضّي. آه يا حسنية. آه يا لبوة. آه يا قحبة...آه..... آ.....ه !!!

— ١٨ —

يلامس القرص البرتقاليّ خطّ الأفق، فتُسارع رمال عطشى ألهبتها سياط النهار، تغبّه بتشهّ.

يلج المساء بوّابة الجنوب. يرتعش نسيم غرّ ثم يكبو. ينحني النيليّ على الأصْفر. ويتمدّد الكحليّ رشيقاً أشبه ببقعة حبر تتّسع كلّما تشرّبتها الرمال.

صرخ الوليد يبعط بيديه ورجليه على صدر أمّه، فقامت حسنية تهدهد يقظته، سبات أمّه ومن غفا من الركّاب.

بصعوبة، شقّت خدّوجة عيناً. وحين اطمأنّت إلى وجود من ينوب عنها، أرْخت جفنيها وشعرت كما لو أن اطناناً من ساعات الأرق والإنهاك تتكدّس فوقهما. لولا أن زنديها الجبّارين ويديها الحكيمتين دخلتا إلى الجوف لتُخرجا ما امتنع وعاند، لمات الصبيّ وأمّه لا محالة. من أين جاءها كلّ هذا الإقدام؟ بان قفاه لعينيها، فراحت تولول وتندب حتى ظهرت حسنية وكمّت فاها بيدها وهي تردّد : لا بأس عليكِ، ها انا معكِ الآن... حسنية! الآن تتذكّر أنها لم تأتِ من النواحي حيث كان يقف الباص. جاءتها من الوراء بصدر لاهث وشعر تروح خصلاته في كل الاتجاهات، ثم جعلت تزجر الركّاب الذين توافدوا وتأمرهم بالابتعاد عن الستارة والفِراش. هل كانت اللئيمة نائمة بعد أن أوهمتها بأنها تقوم بحراسة ابنتها في الباص؟ لئيمة أجل، وفوق هذا جميلة وذكية كالحرباء! قوية خاصة، إذ لولاها

لما عرفت خدّوجة كيف تدفع المصيبة عن المرأة الحامل ووليدها الذي كان سيختنق في بطنها ملتفّاً بالأحشاء...

ادفعي يا أختي، جعلت حسنية تصرخ، ثم وقفت وقالت لخدّوجة : إمّا أن نُصلح من وضعية الجنين في الحال، وإمّا... فلم تتردّد خدّوجة. بلى. الحقيقة أنها تردّدت قليلاً ثم حسمت أمرها: لا واللّه، لن تسمح لهذه المخلوقة اللئيمة، حسنية، أن تسرق منها دور البطولة في آخر لحظة وبعد كلّ ما صرفته من الجهود والأتعاب!

عصبت خدّوجة المنديل جيّداً، ثم شمّرت عن زنديها وركعت حاشرةً رأسها بين فخذي المرأة الحامل وهي تُطلق جمل البسملة والدعاء. جسّت يداها كتلة غامضة وراحتا تستهديان بما تقعان عليه من أطراف... كالمعجزة، انقلب الجنين. ظهر رأسه، ثم انزلق جسمه الصغير حتى استقرّ ما بين يديها المرتجفتين. وانطلق صوتُه بالبكاء...

فاجرٌ هو هذا الصبيّ، ما به لا يتوقّف عن الصراخ! ردّدت خدّوجة في سرّها، ثم هبطت إلى قاع النعاس كحصاة تغمرها مياه الرقاد، بينما استمرّ بكاءُ الوليد يتدافع ويتماوج كدوائر تتكاثر فوق سطح المياه.

علا صوت حسنية التي راحت تهزّ الوليد مدندنةً له كي يهدأ ويستكين، فشعر يوسف أنه في بطن سلحفاة عملاقة تحمله وتمضي به في اتّجاه ليل ودّعه منذ زمنٍ بعيد.

«ننّي ننّي
جاك النوم
أمّك قمرة
وبوك نجوم»...

كالحكايات.

في خُرْج تدلّى من على ظهر بغل صديقة حملته وسارت به، راح يوسف الصغير يودّع الشمس الغاربة خلف حدود المدى المترامي الأطراف. يتهادى ناعساً أو يرفع إصبعاً يحصي النجوم، فتخطئه مشية البغل المترنّحة الحساب، او تدفعه النيازك الهاوية نحوه الى إخفاء وجهه بيديه الصغيرتين. الرجل لا يخاف -يطلق عمّه من وراء البغل- الرجال لا تبكي يايوسف ولاتخاف! يبتسم الصغير لإلفة الصوت، فلا يبكي -كالرجال- ولا يخاف.

«ننّي ننّي جاك النوم
أمّك قمرة وبوك نجوم...»

كشفت أمُّه الغطاء عن رأسها بعد أن انتحت زاوية في الدار، واستمرّ نحيبها يجري متدفّقاً غزيراً حتى وصل أعمامه فشحّ واستكان. رفعه عمّه من وسطه عالياً، ثم أجلسه على فخذيه وقال : الأعمار في يد الله. ولكنّه قُتِل! همست من بين دموعها، فأردف : لا تخافي على وحيدك، كلّنا في منزلة أبيه...

يتحلّقون حوله في عباءاتهم السوداء وبنادقهم، ثم يروحون في كلام يُندي الجباه وينفخ الأوداج. كلنا في منزلة أبيه. لا يذكر وجه أبيه. يذكر قدمي عمّه تهرسان الرمال وتسيران كعقربي وقت بليد. يذكر البغل السوداء والخُرْج، وقمراً مكتملاً يحنو عليه ودرباً امحّت من عينيه، وليلاً غادره وعمره سنوات، ليعود إليه إثر ثلاثين عاما فيعانقه بعد طول غياب.

الرجال لا تبكي يا يوسف، ولا تخاف. لكن يوسف، بعد أن أفاق في الخرج، بكى وخاف. تلفّت حواليه، انتظر قليلاً، ثم خرج صوته بنداء طويل أجفل رمالا تطايرت متوارية وراء الكثبان. نادى يوسف

الصغير عمّه : يا عمّـ ....ي ي ي ي ي ي ي ي ي! ثم انكسر صوته متشظّياً متنتّعاً بالبكاء...

كنار فارقتها الأنفاس، خبت الذكريات في رأس يوسف بعد أن هدأ بكاءُ الوليد. وكإبرة صدئة تفتقد خيطاً وإبرة، راحت ذاكرته تدور على فراغ. غفا يوسف الصغير في ذاكرةٍ استفاقت، وها هو يوسف الكبير ينام لارتجاج الباص به أو لبرد يخدّر الأطراف.

يطفىء القلب.
ينام.

- ١٩ -

- ثم ماذا؟
- أتعبتني يا رجل. كل هذا الكلام وأنا لم أزلْ على الريق...
- أطعمك لاحقاً، تابع الآن.
- لا! آكل أوّلاً وأروي لك البقية ببطن ملآنة، هكذا أستجمع أفكاري بشكل أوضح.

حسناً، قال المعاون على مضض، ثم وقف واتّجه إلى حانوته الصغير، حريصاً على سحب كيس كعك بأقلّ قدر ممكن من الضجيج كي لا يوقظ النيام.

قال معاوية المطماطي : أهذا كل شيء؟ فردّ المعاون بنظرة ملؤها الاستنكار، فأردف معاوية : والوعد؟ أما قلت بأنك ستؤمّن وجباتي كلّها لقاء ما أعطيتك من سكّر؟ هزّ المعاون رأسه متأفّفاً، ثم أخرج زجاجة عصير فتحها وقدّمها إليه : خُذ، هذا فطورك ولا تحدّثني عن الأكل ثانية قبل أن يحين موعد الظهر! فابتسم معاوية وقال : نبحث في ذلك لاحقاً، ثم أخذ يمضغ ويغبّ ويتلمّظ ويقرقر ويصيء ويطقش ويغرغر، فيما المعاون يراقب مستغرباً تهافته المتعاظم على الأكل...

قال المعاون هازئاً : باللّهِ عليك، أخبرني كيف كنت تصبر على الجوع والعطش أيام النضال؟ فردّ معاوية : وهل ادّعى أحد بأن

المناضلين لا يجوعون ولا يعطشون؟ أليسوا بشراً كسواهم؟ اسمع، سوف أعترف لك بسرّ عِدني بأنك ستبقيه لك. قال معاوية ذلك، ثم مال برأسه ناحية المعاون خافضاً صوته، فمال عليه هذا الأخير بدوره إلى أن سمعه يقول : النضال يا صاحبي، يفتح الشهية كالجنس !

تشردق معاوية غاصّاً بضحكته، فوضع المعاون كفّه على فمه يسعى الى إسكاته، بينما راحت يده الأخرى تربت على ظهره لإيقاف نوبة السعال التي فاجأته. تململ حسن الصوفي متلفّظاً بكلمات أشبه بالغمغمة، ثم شخر بقوّة وهو يلوك بين أسنانه الكلمات : يا نخيل الأحباب... يا الداء والدواء... فعاودت نوبة الضحك معاوية والمعاون، حتى كادا ينفجران لشدّة ما كانا يحاولان منع نفسهما من الانفجار.

تنفّس معاوية عميقاً، ثم مسح فاه بطرف كمّه وقال : كدتَ تقتلني... وهذا السكّير المخبول الذي يزعم أنه معلّم في الكتّاب...! الحاصل، أين كنّا في الحديث؟

قال المعاون : وصلنا الى مشاركتك في حرب الخليج.

قال معاوية : كم عمرك؟

قال المعاون : وما دخل عمري في الموضوع؟

قال معاوية : لا تغضب، سألتك فقط لأنك ذكّرتني بشبابي.

قال المعاون : واحد وثلاثون! ولكن، ما الذي أخذك إلى هناك؟

قال معاوية : جميل البغدادي!

قال المعاون : ذاك المسكين الذي وقع في البئر؟

قال معاوية : أجل. حين اشتعلت الحرب، تذكّرته وشعرت أن ديناً له عليّ. أفهمت؟

قال المعاون : خيرة الرجال يا سي معاوية! أتصدّق لو قلت لك إني أنا أيضاً، كنت أنوي الالتحاق بالرجال أيام الاجتياح الاسرائيلي لبيروت؟

قال معاوية : حقاً؟

قال المعاون : كنّا سننطلق مع ثلاثة من أبناء القرية -شبّان جدعان- فأعددنا العدّة وتهيّأنا لرفع الرحال...

قال معاوية : لماذا سكتّ؟ هل ذهب منكم شهداء؟

قال المعاون : أنبأونا قبل سفرنا أن الحرب انتهت وأن البواخر راحت تُخرج المقاتلين إلى البحر بالمئات.

قال معاوية : لا بأس عليك، فلم تزل شاباً وطريق النضال طويلة.

قال المعاون : عن أيّ نضال وطريق تحكي يا رجل؟ أعتقد أننا نقف على كفّ عفريت...

قال معاوية : لا سمح الله! لم تزل «القضية» تحتاجنا والعرب قوم شجعان وشرفاء!

قال المعاون : بالرغم من كل ما يجري من أحداث هنا وهناك، تقول...

قال معاوية : كلّه هراء بهراء... ترّهاتٌ وإشاعات. أنا الأدرى بما يجري وأنا أقول لك : السلام مقابل الأرض، أتسمع، والأرض مقابل السماء... أعني السلام!

لم يُجب المعاون. ولحيرةٍ تملّكته، أجبر نفسه على الصمت بالرغم من سيول الكلام التي راحت تتدافع غزيرة تحت لسانه. خطرت له خاطرة سوداء اقشعرّ لها بدنه، فقام يعتذر متذرّعاً بضرورة النوم، مستتراً خلف تعب السفر الطويل. وعلى غير ما كان يتوقّع، وافقه معاوية سريعاً إذ قال : أنت على حقّ، حلّ النهار وأنا لم يغمض لي جفن. غداً نتابع النقاش إذا شئت...

ابتعد المعاون متّجهاً إلى مؤخرة الباص تفادياً لأسئلة سوف يمطره بها السائق، إذ كان قد رآه مراراً ينظر إليه في مرآته الصغيرة. فكان ، كلّما التقت نظراتُهما، يسعى إلى الاستدارة عنه. إليكَ عنّي يا أخي، لستُ عبداً لك! ردّد المعاونُ في سرّه وهو يرتمي منهكاً فوق المقعد خافضاً رأسه بحيث يتوارى من عينيه.

وذاك الآخر، معاوية المطماطي! ألا يكون مخبرا سرّياً يسعى إلى الإيقاع به؟ ألصٌ محتال هو، أم أنه بات يخرّف من حرقته؟ عجيبٌ أمره. من بين كل المسافرين، وحده جاء من غير متاع. وزنٌ من السكّر بعد خمس وأربعين سنة، أمعقول هذا؟ تبّاً لي، كيف لم يخطر لي سؤاله عن اسم قريته وعمّن يعرف من أهلها؟ وماذا لو كان فعلاً من الجنوب ... ثم، ما همّي أنا أحمل الدنيا على رأسي؟ ألا يكفيني كل ما بي...؟

أغمض المعاون عينيه غاضباً على ذاته، ناهراً الأفكار السوداء التي راحت تطنّ في رأسه، فطردها كما لو كانت من الذباب وانزلق مزيداً، مكتّفاً ذراعيه ومسنداً ركبتيه إلى المقعد الأمامي.

سيتزوّج! أجل، هذا عين العقل! يستمرّ في عمله كمعاون، وما أن يجتمع لديه المبلغ الكافي من المال، حتّى يستقلّ بعمله ويشتري باصاً له. يبحث عن بنت حلال يقترن بها وينجب الأطفال.... مسكين هذا الوليد، سيعيش يتيماً من دون أب. هو أيضاً عاش يتيماً. كاليتيم. ليته كان يتيماً بالفعل من مثل ذلك الوالد الذي له. «ما لك والمدارس؟ يكفيك أنك تقرأ وتكتب، فما الذي تريده بعد؟»، كان يقول أبوه. تنهال العصي عليه حين يعاند، حتى انتهى الأمر بأن فاز عليه وأصبح هو معاوناً يقضي حياته على الطرقات... ومع هذا، فليس خرّيجو المدارس والجامعات بأفضل حالاً منه وقد رآهم ينتهون على الطرقات مثله، لكن من غير هدف او باص... غداً يرى والده ما الذي سيطلع منه، سيرى أهل القرية بمجملهم ما...

وانتصب المعاون يستطلع لمن هي تلك الأسنان التي جعلت تقفقف وترتعد، تتكتك وتصطكّ. كانت المرأة في الخلف، سابحة في عرقها والدم، وكان جسدها ينتفض بعنف ورأسها تتدلّى منها حتى لتكاد تقع على الأرض. دنا منها وشبك يديه تحت أسفل العنق،

ففاجأته سخونة ومياه جعلته يتراجع مذعوراً وهو يمسح راحتيه بنطلونه. حار فيما يفعل والنساء راقدات، فاتّجه إلى السائق يطلعه على الأمر.

ضرب السائق المقود ضاغطاً على فكّيه، انتحى جانب الطريق وفرمل مغادراً مقعده إلى مؤخرة الباص. وقف المعاون في قفاه وانحنى الاثنان يتفقّدان المرأة ويتهامسان. استفاقت مريم فلكزت أمّها ونادت على حسنية، ثم تنبّه معظم الركّاب فراحوا يبربرون ويتساءلون عمّا يكون قد أجبر السائق على التوقّف والوقوف بين النساء.

يلزمها طبيب، صرخت مريم، فأجابها السائق : أي طبيب؟ نحن تقريباً على مشارف الصحراء! ثم رفع يديه ممسكاً بخصره كمن يجدّ في البحث عن فكرة ما. التفت إلى المعاون وسأل : من أية قرية هي؟ فرفع المعاون منكبيه مجيباً : لم تذكر اسماً، قالت فقط إن وجهتها غير بعيدة عن دربنا، وإنها ستنزل ما ان تصبح قريبة فتتابع سيراً على الأقدام. اللّه اللّه، أطلق السائق وهو يضرب كفّاً بكفّ، ثم أردف : والآن، ما الحلّ؟

لم يمضِ وقت طويل على حيرة أهل الباص، وقد جاءهم الحلّ في عربة خشبية يجرّها حمار ويركبها رجلان، شيخ وشاب.

دفع السائق المعاون من أمامه ونزل من الباص يجري وينادي على المارّيْن بأن توقّفا في الحال! شدّ الشاب رسن الحمار، فعاند قليلاً ثم حرن محدّقاً في الأرض. تقدّم السائق وقال : مرحباً .. وعذراً .. وشكراً .. وعفواً .. وأهلاً .. وقد أرسلكما الله... تبسّم الشيخ مستغرباً فيض الكلمات والعبارات المتلعثمة في فم الرجل الغريب، ثم اتّكأ على عصاه وقام يترجّل على مهل. سألهما السائق : إلى أين تتّجهان؟ إلى بني حدّاد أجاب الشاب، فهلّل السائق فرحاً

: ألم أقل بأن الرسول عليه الصلاة قد هدانا إليكما؟ سبحان الله، معنا امرأة ولدت ليل البارحة وكنت قد التقيتها في الشمال حاملاً تقف على قارعة الطريق، فقلت أحملها إلى قريتها حسنة لوجه الله. هي أيضاً من بني حدّاد... ثم سكت برهة وأضاف : لكن، بني حدّاد أصبحت وراءنا!

أجل، أجاب الشيخ. غير أن هذا الأمير الشهم -وأشار إلى الشاب- عرض أن يرافقني إلى جبل المحروس، فيوصلني ثم يعود إلى هناك. قهقه السائق، بل قفز ضاحكاً : ممتاز! هي محطّة على دربي للتزوّد بالوقود ولاستراحة يطلبها الركّاب. هكذا تختصر أنت طريقك، قال للشاب، فتعود توّاً إلى بني حدّاد، وأصطحب أنا معي شيخنا. فما رأيك يا صاح؟ سهّل الله، أجاب الشاب، فاستأذنه السائق لحظة وعاد إلى الباص.

حين أطلع السائق الركّاب على ما ينوي عمله، وافق الجميع معتبرين أنهم قد قاموا بالواجب وأكثر منه. وحده حسن الصوفي حاول الاعتراض حين سأله مستفسراً : وكيف عرفت أنها من بني حدّاد؟ قالته لي، ردّ السائق متحدّياً، فانسحب حسن بسرعة إذ رأى الركّاب يوارون نظراتهم في أحضانهم والجيوب الصغيرة والأقدام.

رتّبت النساء المرأة، فمسحن عرقها وسوّين ثيابها ورفعنها يساعدنها على المشي، إلى أن طرحنها على خشب الحنطور والقين بوليدها إلى جانبها، ثم عدن إلى الباص. كان السائق يرحّب بالشيخ ويعينه على الصعود، مجلساً إياه ومعرّفاً به الركّاب.

تنفّس السائق الصعداء بعدما أحسّ بعودة الأمور إلى نصابها، فأرخى الفرامل وما كاد يضغط على دوّاسة الوقود، حتى علا صوت الشيخ يقول : قفّتي! ففرمل وركض المعاون الى الحنطور ثم رجع، إلى أن لكز السائق خاصرة باصه وسار.

- ٢٠ -

- حذارِ القفّة يا بنيّ. فيها تين طازج!

هذا ليس موسم التين، علّق أحدهم، فرفع الشيخ غطاء قفّة القشّ يتناول ثمرة تين أسود ويفلشها، فيلعقها متلذّذاً بلبّها العسليّ.

تطاول بعض الركّاب برؤوسهم مائلين بأبدانهم ليتأكّدوا من أن ما يأكله ذاك الشيخ الجالس في المقدّمة، تينٌ بالفعل، فلحظهم الشيخ وأشار للمعاون أن يوزّع عليهم بعضاً منه.

دار المعاون على الركّاب. وحين جاء دور خدّوجة، أخرجت من عبّها منديلا ثم غرفت بيدها كمية من الثمار تضعها فيه. تلفّت المعاون حواليه يبحث عمّن يشهد له، فقالت هامسة : ماذا؟ لي ولابنتي! ثم، أمن جيبك تطعمنا يا رجل؟ واستدارت تتأكّد من أن أحداً لم يرها، فخفض مالك الرضيّ عينيه كي يوهمها بأنه لم يلحظ شيئاً. إلتفت ناحية يوسف، فوجده يبتسم له.

رفّ قلب مالك وتسارع نبضه كأنما قد تهوّر لتوّه، فسقط عن علوّ شاهق ليستقرّ بين قدميه مدمّى، جريحاً، قتيلاً، لا رمق فيه. ما الذي يحصل له؟ تساءل مالك بعد أن عدل عن قضم التينة التي كانت على مقربة من فمه، فأعادها كي تستريح في يده المرتجفة فوق

فخذيه. ما المعيب في الأكل حين يقع الإنسان في الغرام؟ ما المريب في فتح الفم، القضم، المضغ والابتلاع؟ أهو الخوف من تشريع نافذة على الروح تعبرها نظرات المعشوق عنوة لتعيث فيها خراباً...؟ كالحروب. كالطاعون. كالوباء. كالزلزال. كالفيضان. كبركان تتشقّق فوهته فتلفظ سيولاً من الحمم تحرقه، ثم تصل باردة مطفأة إلى السهل البعيد... يوسف سهل بعيد. يوسف، وليس في استطاعة مالك تحريك شفتيه أو يديه. ليس باستطاعته أن يأمر أية عضلة في جسمه الذي زنّره وشدّ الوثاق، كي لا يفضحه موديا به إلى الهلاك.

كانت بعضٌ من تلك الحبيبات الصغيرة الصفراء التي ترصّع قلب الثمرة الشهية السوداء، عالقة في الجهة اليسرى من شفة يوسف السفلى. وكان فمه مكوّراً ومشدوداً إلى أصابع يده التي أمسكت بالعقصة واتّسخت بسائلٍ عسليّ. يسمع مالك شفتي يوسف تمصّان، لسانه يستطيب ويتذوّق، وبلعومه يدفع ما انهرس ممزوجاً باللعاب. يراه بزاوية عينه وقد رفع أصابعه المتسخة يتأمّل فيها. يراه يمدّ يده إلى جيب بنطلونه لسحب محرمة لن يجدها فيه. يراه يلتفت إليه، ثم إلى التينة التي استقرّت كاملة على فخذيه، ثم إلى أصابعه هو التي قرّر أن يلعقها واحدة واحدة، فينظّفها من عصير التين.

يستدير مالك إليه، فتضحك عينا يوسف الغريقتان في وجه نبت الشعر فيه فزاده غواية وجعله شبيهاً ببرعم يصدّ ويدعو محتمياً بما أخرجه من أشواك.

كالسحر، ارتفعت يد مالك بالتينة وطارت كفراشة لتحطّ أمام وجه يوسف، فازداد يوسف تبسّماً وقال : أحقاً لا تريدها؟ هزّ مالك رأسه بأن لا، ثم باشر كلاماً سال من حنجرته من غير استئذان : أتعرف بأن عقوبة صارمة كانت تتنتظر من تسوّل له نفسه الزغل بالتين بأن ينقعه في الزيت لينتفخ ويلتمع ويستدير...؟ ما همّ، فليقل

أيّ كلام، فليدل بدلوه حيث لا توجد بئر أو مياه، ولتتشظّ روحه وتتبعثر زجاجاً وبلّوراً وفتاتاً، شرط أن يُتاح له تأمّل شفتي يوسف العسليتين تتعاطيان مع تينته بهذا الاحتراف. احتارت شفتا يوسف قليلاً تنتظران بقية الحديث، فتابع مالك يقول : وكانت العقوبة تقضي بتوزيع تين البائع الغشّاش كلّهَ على المارّين في السوق...

انتهى يوسف من الأكل، فأنهى مالك كلامه. وما أن خبط بجناحيه حتى وجدهما وقد احترقا وتناثرا، فأيقن أنه لن يقدر على مفارقة وجهه بعد الآن والعودة سالماً من حيث جاء. أهداه ثماره كلّها، فكان أن وافته شجرة يوسف بما هو أكثر من البنادق والأفخاخ، فعلق بدبقها مستسيغاً ألوان نزاعه المقبل إليه واستكان.

إستكان مالك نائياً وبعيداً عن الباص، فلم يسمع ما دار بين الركّاب من حوار حين قال شاكر الصابوحي : بوركتَ أيها الشيخ، إنه فعلاً لثمر شهيّ، فعقّب حسن الصوفي : لذيذ بالفعل، لكنه ليس موسم التين ! همّ شاكر بالردّ على حسن، إلاّ أن حسنية سارعت تقول : كان لوالدي جنينة مليئة بأشجار التين -كهذا الذي أكلناه واللّه، إن لم يكن أفضل منه- وكانت تعطي في غير موسمها ما هو ألذّ وأشهى من ذاك الذي يُقطف خلال المواسم في سائر البساتين... وكان والدي يصحبنا إليها صباح كل يوم، يفتح البوّابة ويطلقنا أنا وإخوتي معيّناً لكلّ منّا شجرة، قائلاً: إصعد إليها وكُلْ ما شئت فإنها لك... ويصرّ ألاّ ننزل قبل الشبع الحقيقي -الشبع العادل كما كان يحلو له أن يقول- وإلاّ تحوّلت أشجارها إلى تينات عادية تعطي ثمارها لا خارج الموسم، بل خلاله وفيه...

سكتت حسنية بانتظار تعليق او إشارة من عبد الفتّاح، كأن يلتفت إليها مثنياً على كلامها؛ مشجّعاً إياها على المتابعة؛ مغتنماً الفرصة التي نقفته بها كي تجد نظراته المثيرة الطريق إليها؛ رافعاً رأسه العنيد عن الزجاج؛ مديراً رقبته السمراء التي تعلّقت عيناها

بها منذ عاودا المسير؛ مسترقاً النظر إلى أي جزء من أعضاء جسدها الذي انفلت منها وراح يسبح في فلك ذكورته الرحيب؛ محرّكاً مسبحته الكبيرة الصفراء او مطقطقاً بحبّاتها في إيقاع ستجيد هي حتماً فكّ رموزه؛ مجلِساً قعدته؛ نابساً بحرف، بحركة، بإشارة تُهديها إليه بعد أن شعرت بأنها تقريباً قد أضاعته...

غير أن عبد الفتّاح بقي على جموده متظاهراً بالنوم أو بالسرحان، وقد استمرّ ظهرُه منيعاً ومستعصياً كسور، على نظرات حسنية التي جعلت تتسلّقه وتنزلق، تمتلىء بالقروح والندوب، معاودة الصعود والدبيب.

طال انتظار حسنية لدعم لم يجئها من عبد الفتّاح، بل من محسن زوجها والمعاون الذي اندفع يعينها على متابعة الكلام.

قال محسن : حين تعرّفت بوالد زوجتي -وكنت قد قصدته لأشري منه قطعاناً- فاته أن يصطحبني إلى تلك الجنينة لأتذوّق ثمارها. لكني واثق من صحّة ما روته حسنية، ذلك أنها تكره الكذب أكثر ممّا تكره إبليس... فأضاف المعاون معقّباً: لكنّك وطئت جنينة له خيّرة وذقت ما هو أشهى وألذّ من أيّ تين... !

ضحك الركّاب لتعليق ظريف لم يفقه محسن له معنى، إذ رفرف بهدبيه ملتفتاً إلى حسنية التي تولاّها الإشفاق عليه فاستعادت زمام الأمور وقالت : حين كبرت، ما عدت أذهب إلى الجنينة حتى نسيتها تماماً. لكن ثمار هذا الشيخ الجليل ذكّرتني بها لما هي عليه من طيب مذاق.

اندفع الدم أحمر قانياً إلى وجنتي مريم بعدما قرّرت مقاومة خجلها والقفز رشيقة فوق التصوينة التي تحيطها بها أمّها خوفاً من الذئاب، لتشارك الركّابَ لهوهم في المرعى الأخضر الذي انبسط

أمامها فسيحاً بفعل الكلام المغنط اللعوب؛ فسألت بصوت يثب عالياً كي يداري حرجه : خالتي حسنية، وما الذي حصل للجنينة كي تمتنعي عن ثمارها؟ فأجابت حسنية بشيء من الحزن : أضاع والدي مفتاحها يا مريم، فتزوّجْتُ...

التفتت خدّوجة إلى ابنتها مصعوقة لا تكاد تصدّق، ففاجأ السائق الجميع بهتافه : جبل المحروس يا أخوان! هذه آخر محطّة على دربنا، فانزلوا واقضوا حاجاتكم وعودوا بعد ساعتين. ها إني أنبّهكم إلى أني لن أنتظر من يتأخّر ولن أقبل أيّ نوع من الأعذار!

توقّف الباص، فهمس السائق لمعاونه : فلينزل الجميع. أنا سأنتهي من التزوّد بالوقود وأنام قليلاً، يكاد ظهري ينقطع إلى نصفين. رافقهم أنت وعُد لإيقاظي بعد ساعتين... قطع السائق كلامه لمرأى الشيخ منتصباً بالقرب منه، فقام يشكره ويسلّم مودّعاً بينما نزل الآخر فيما هو يردّد وكأن لنفسه : ولكني لم أفهم حتى الآن، كيف كنتم تصحبون تلك المرأة ووليدها إلى ما كان قد أصبح وراءكم منذ حين؟ فبقي سؤالُه معلّقاً في سقف الباص.

تدافع الركّاب يسعون إلى الاستفادة من الفرصة التي أتيحت لهم، حريصين على عدم التفريط بأي من دقائقها الثمينة، إلى أن توقّفوا متحاشرين تعترضهم ذراعُ حسّن الصوفي الذي سدّ عليهم المرور وأطلق : دقيقة يا أخوان، ثم انحنى إلى نخلته فحملها إلى صدره بتؤدّة وتقدّم ينزل وهو يقول : حمداً للّه على سلامتك. لا بأس عليك من غبار الطريق، سوف أغسلك فتنتعشين وتستريحين... فرغ البابُ منه، فتبعته البقية أشبه بقفير دبابير انفلت يطير في جميع الاتجاهات.

في وسط الساحة، وقف يوسف يستطلع المكان فيما جعل يمطّ جسده كمن استيقظ لتوّه من النوم. وراءه وقف مالك متردّداً، ثم

حسم أمره فتقدّم منه يقول: جبل المحروس هذا، عبارة عن أهرءات كانت القبائل تستخدمها في ما مضى، أي قبل اندثارها وتفرّقها إلى حيث يعلم الله، لتخزين القمح، فتقوم على حراسته لكي لا يتعرّض للغزو وتقتسم مدخراته بحسب حاجات كلٍّ منها. اليوم، تحوّل إلى محطة يؤمّها السوّاح والمسافرون... أتعرف أسماء القبائل تلك، سأله يوسف مقاطعاً بلهجة بانت فيها أمارات الاضطراب. لا، أجاب مالك. لكن لو أردت، باستطاعتنا زيارة المكان إذ لا بدّ من وجود من يستطيع موافاتك بمثل هذه المعلومات. وافق يوسف ممتناً، ثم سارا.

رآهما المعاون يبتعدان، وحين سأله معاوية عمّا ينوي فعله لملء الساعتين، أسرّ إليه برغبته بالهرب قبل كل شيء مخافة أن يقع في ورطة شاكر الصابوحي فيُجبر على التحوّل إلى عصى تقود خطاه العمياء...

بعد أن تأكّدت حسنية من الوجهة التي أخذها عبد الفتّاح، شكرت ربّها وخبث الركّاب على فرصة كانت ستشقى في البحث عنها، فوجدتها جاهزة تبعط بين يديها. لكزت محسن زوجها مشيرة إلى شاكر الصابوحي. ماذا؟ سألها محسن، فقالت : حرام عليك، ألا تراه الضرير المسكين؟ أم تودّني أن أروح أنا إليه بدلاً منك؟ إذهب واعرض المساعدة، عوّض الله عليك... أنهت كلامها وابتسمت وغمزت بعينها الكحيلة ضاربة على وتره الحسّاس، فما كان من محسن إلاّ أن انطلق كالسهم وفي نيّته أن يُثبت لامرأته بأن الرجولة والشهامة لا تتصلان بالضرورة بقصر القامات.

سوّت حسنية لُحْفتها وتنفّست كمن تخلّص من آفة تمنعه من التفرّغ كلّية لعمل يتطلّب منه كلّ التركيز، ثم اتجّهت ناحية خدّوجة وابنتها تسألهما : ما الذي تنويان عمله؟ وأنت، أجابت خدّوجة،

فردّت حسنية : طقّ قلبي من العطش. سأشري زجاجة عصير، ولمريم واحدة إن أرادت مرافقتي إلى الدكّان. هه، أتأتين؟ تعلّقت مريم بعيني أمّها ترجوها بالنظرات، فقالت خدّوجة : حسناً، روحي معها وأنا سأذهب لأضع شيئاً تحت أسناني، أكاد أموت من الجوع.

- ٢١ -

وقف معاوية أمام بائع الحلويات وقال للمعاون: طلبتَ ألاّ أفتح فمي قبل موعد الغداء، وها هي الساعة قد قاربت الظهر، ألم تجع يا أخي بعد؟ لا، أجاب المعاون حاسماً النقاش، فأردف معاوية : حتى ولو كنت أنا من سيدفع الحساب؟ ابتسم المعاون غير مصدّق، ثم قال يختبر صدق نواياه : في هذه الحال، آكل. إذ لا يليق بشهم مثلي ردّ دعوة كريم مثلك!

ضرب معاوية كفّه على ظهر المعاون ثم قال للبائع : هاتِ أذِقنا ما عندك من لذائذ وطيّبات...

* * *

لوجع في ظهره سبّبه اضطرارُه إلى الانحناء، غيّر شاكر الصابوحيّ متكأ يده التي تركت ذراع محسن القصّاب لتستقرّ عند أعلى نقطة في قامته؛ فنفض هذا الأخير رأسه وقد شعر بشيء من المهانة إزاء وضعية سوف تُظهرهما على صورة ضرير وصبيّه الشحّاذ.

انحنى شاكر صوبه وهمس بشيء من الإحراج : أرحني يا ولدي، أراحك اللّه! ففهم محسن طلبه سريعاً واتّجه به إلى بيت الخلاء...

* * *

قام السائق يغلق النوافذ بعد أن منعه الضجيج من الاستغراق في النوم. وعندما نظر إلى ساعته، وجد أنه قد أضاع ثلاثين دقيقة في محاولاته اليائسة للاستهداء إلى النعاس. قام وذهب إلى جانب المقود، فتناول الرقعة التي يستعملها عادةً لتجفيف عرقه، وعاد يتمدّد فوق المقعد الخلفي حريصاً على وضعها على وجهه كي تدفع عنه نور الظهيرة الكاسر المنشب براثنه في بؤبؤيه...

* * *

قالت خدّوجة وهي تزبد من الغيظ والاستنكار: وتدّعون أنكم من عباد الله وقومه الأبرار؟ قطعتا جبن وخبزة لقاء هذا المبلغ من المال؟ لماذا؟ أمختلف جبنكم عن سواه، أم أن خبزكم معجون بغير الطحين والماء...؟ قد ملأ الجشع جيوبكم فأسال لعابكم حتى صرتم تسرقون الأرامل والفقراء !

كان الناس قد تحلّقوا من حولها لفرجة خارجة عن المألوف، فما كان من البائع وقد أصبح بنفسجيّ اللون منتفخ الأوداج، إلاّ أن رمى بدراهمها بوجهها، ثم خطف منها الخبز والجبن وأخذ يمعسهما ويدعكهما بين يديه وهو يسبّ ويشتم بجميع اللغات...

* * *

وقفت حسنية أمام صندوق المرطّبات حريصةً على وضع كفّيها على خصرها بحيث تشدّ الرداء فيظهر ردفاها وإليتاها على تكوّر ونتوء تعرف جيّداً مقدرتهما على الإغواء؛ ثم قالت وهي ترمي برأسها إلى الوراء نحو مريم التي جلست بالقرب من عبد الفتّاح إلى طاولة أمام الدكّان :

- برتقال يا بنت، أم تمر هنديّ؟

مثلما تشائين يا خالتي، أجابت مريم وهي تبتلع الريق الذي

سال منها غزيراً بفعل الكلام المعسول الذي انزلق من فم عبد الفتّاح على جسدها، بعد أن مال عليها مغازلاً وهامساً : لو كنت أنا من سيتزوّجك، لأعطيتك، بشرفي، مئات الأولاد...

* * *

مخطوف اللون جمد يوسف ينتظر سماع اسم دون سواه، يتلفظّ به ذلك الحارسُ الذي وقف يعدّد القبائل التي كانت تستعمل هذه الغرف الترابية المتحاشرة والمتفاوتة المستويات، لتخزين القمح. وحين وقع ذاك الاسم بين يديه، شعر بالدُوار ورشح بدنه بنقاط عرق تلألأت فوق جبينه وأعلى شفتيه، وجعلته يبدو كمن تعرّض لتوّه لوابل من الأمطار.

كان مالك وكأنه قبض على يد يوسف في اللحظة الأخيرة التي تفصله عن قاع هاوية راح جسده يترجّح فوقها، عندما تناول السؤال الذي علق على شفتي يوسف المرتجفتين، فطرحه على الحارس نفسه : وأين أصبحت قبيلةُ بني... اليوم؟ غير أن الحارس أجاب مبتعداً : يعلم الله... ! وتذكّر مالك أنه كان قد سمع الاسم نفسه في البستان، خلال الليلة التي وَضَعَتْ فيها المرأة الحامل، حين كانوا جميعاً متحلّقين حول موقد النار...

* * *

جلس حسن الصوفي متربّعاً على الأرض وسط الساحة التي تتقدّم البناء، محيطاً بذراعيه نخلته الصغيرة التي وضعها بين فخذيه. راح يتأمّل الحركة المزدحمة من حواليه، يأخذ جرعةً من الخمر الذي تزوّد به أوّل وصوله، ثم يُطلق النكات والتعليقات.

يبتعد عنه المارّة مشمئزّين، هازئين، محاذرين، ضاحكين، مستائين، مندهشين، مستغربين، أو مشفقين... فيميل هو على

«حبيبته» غير مبالٍ، مستغرقاً في الضحك ومخفياً وجهه وعينيه الزائغتين في خضرتها التي تبرّد ما فيه من حريق...

* * *

أقبل محسن القصّاب يجري في اتجاه حسنية ومن كان معها، فقامت تعيد فراغ زجاجتي العصير. وحين عادت إليه، وجدته كالجرذون مبلولاً من رأسه حتى أخمص قدميه.

أخفت مريم ضحكتَها في طرف منديلها، وسأل عبد الفتّاح مسابِراً : خَيْر، ما الذي أصابك يا قصّاب؟

جلس محسن مقطوع الأنفاس يخبرهم كيف اصطحب شاكر الصابوحي إلى بيت الخلاء، فأدخله وخرج، ثم عاد إليه مسرعاً عندما سمعه يهوي بكامل ثقله، ليجده ممدّداً على ظهره طريح الأرض. فانحنى فوقه يعينه على الوقوف، فانطلق بول الشيخ غزيراً وطرطشه على الوجه والثياب.

أبهذه الغزارة، سألته حسنية وهي تحملق فيه، فأجابها : وقفتُ بكاملي أستحمّ وملابسي، بالصابون والماء...

* * *

أطلق السائق مزماره على مداه ودونما انقطاع، ففوجيء الركّاب بهذا النداء السابق عن أوانه وأخذوا يتفقّدون ساعاتهم ويتحقّقون من أن الوقت الذي تشير إليه عقاربها، مضبوط.

كانت نصف ساعة متبقّية لم تزل تفصلهم عن موعد الرجوع. غير أن إصرار المزمار على إطلاق النفير، جعلهم يعدلون عن المتابعة في صرف ما يحقّ لهم من مأذونية بعد، فعادوا أدراجهم متعجّلين ومتعثّرين، كعساكر فيلق داهمهم الأعداء على حين غفلة...

- ٢٢ -

كما لو كان نوعاً غريباً من الحشرات الليلية التي لا يقوى بصيصها على مثل هذا الليل المتجهّم الكثيف، تقوقع الباص مغلوباً على أمره وسط كثبان الرمل التي تقدّمت تلتهم طريقاً توجّعت، فتلوّت كثعبان.

- هيّئوا البطاقات وابقوا في مقاعدكم. دورية أمن داخليّ!

أتمّ السائق جملته وقام ينير مصابيح السقف بعد أن أطفأ الأضواء الخارجية لكي يتمكّن رجلا الأمن اللذان صعدا، من استطلاع وجوه الركاب وهويّاتهم.

كانوا أربعة في ثياب مدنية وملامح أخفاها اللثام. إثنان صعدا الى الباص ولم يبن منهما سوى وهج أعين صارمة تقذف نظراتِها حمماً على رؤوس من جمدوا كتماثيل الملح.

فكّر السائق بالتقدّم وعرض المساعدة كأن يجيب بنفسه عمّا قد يطرحان من أسئلة حول الركّاب. إلاّ أنه ما لبث أن عدل عن فكرته تلك لدرايته بأن هؤلاء قلّما يستسيغون مثل هذه المبادرات التي قد توقظ فيهم المزيد من الظنون وتدفعهم إلى مضاعفة الحذر والتفتيش... من الأفضل أن يبقى صامتاً كي لا يعقّدوا عيشتَه ويطيلوا إيقافه كنوع من العقاب، إذ ربّما أجبروه حتى على إنزال كل الحمولة بحجّة البحث عن قنابل ومتفجّرات...

منذ فترة وهم يحومون في سماء البلاد كالجراد. لا يُعرف لهم مواسم او وجهة او أهداف. يحومون أسراباً متفرّقة، يحطّون فجأة على الدروب ويعلنون : «حواجز طيّارة هدفها السهر على أمن البلاد» ... منذ فترة، وهم يتكاثرون. كالجراد. يخرجون من لا مكان. يظهرون بسرعة خاطفة، من خلف منعطف أو تلّ. كأنما الأرض تلفظهم من جوفها كالجنّ والعفاريت... لا وجوه لهم. لا أسماء. لا علامات فارقة. فقط أصوات تلغو خلف أقنعة سوداء، تزيدها الرشّاشات والهراوات والمسدّسات، سطوة ورهبة... عساهم لا يأمرونه بإنزال حمولته وفلش كامل الصرر والحقائب والأكياس. لو فعلوا، لأمضى ليله يعيد رفع وترتيب ما أمضى في توضيبه عدة ساعات...

حركةٌ ما انتشلت السائق من بئر أفكاره، صدرت عن أحد رجلي الأمن اللذين بقيا خارج الباص. وقف رجل الأمن إزاء الباب وقد أمسك بالدرّاجة التي كانت موثقة إلى المؤخرة، وسأل : لمن هذه؟ له، أجاب السائق مشيراً إلى حسن الصوفي الذي رفع يداً أبقاها على مقربة من صدره الهابط الصاعد في لهاث سريع.

أتحتاجها، سأل رجلُ الأمن بعد أن ركب الدراجة وسار بها حتى أصبح تحت النافذة حيث جلس، فخفض حسن عينيه يلوب على جواب. تابع رجل الأمن يقول: اسمع، منذ فترة وأنا أعد ابني بدرّاجة كهذه. فما رأيك؟ استمرّ حسن صامتاً للحظات، ثم فوجيء بصوت كأنه له، يخرج من موضع مبهم في جسمه لينوب عنه في إعطاء الجواب : يا حبّذا لو كان بمقدوري التخلّي عنها لابنك حفظه الله...!

وجم الركّاب واتسّعت أحداقهم، فظهروا كحيوانات بريّة ذُعرت لحركة تنذر بقدوم خطرٍ ما. تقدّم رجلا الأمن اللذان كانا في الباص صوب حسن، صوّبا إلى وجهه نور مصباح صغير صبّاه مباشرة

في عينيه، وجعلا يتملّقانه. ثم، دون أن ينبسّا بحرف، استدارا ونزلا من الباص.

ظنّ حسن أنه ربح الجولة، فارتسمت على ملامحه ابتسامة جعل يوزّعها على الركّاب. لكن لم يطل به الوقت، إذ فهم سريعاً ما الذي يجري حين سمع وقع قدمين راحتا تدقّان سطح الباص مصدرة جلبة شبيهة بضربات الطبول التي تسبق تنفيذ حكم بالإعدام.
خبطت خدّوجة على رأسها ثم أنزلت يدها تكفّ بها فاها ناهية نفسها عن إصدار أي صوت يشدّ إليها الانتباه، وقد أدركت أن ما طقّ بشكل حاد ومقتضب، لم يكن سوى لوح المرآه... المرآة الكبيرة التي تشكّل أثمن وأجمل ما في الجهاز!

هتف أحد رجال الأمن الذين وقفوا مكتّفي الأذرع، بأن على الجميع الترجّل من الباص. امتثل الركّاب وقاموا ينزلون مطأطئي الرؤوس والهامات، حتى اجتمعوا في الجهة التي كان يقذف إليها ذاك الواقف على سطح الباص، ما يقع تحت يديه من متاع وأغراض...

وكما حين يصبّ اللّه جام غضبه على رؤوس العباد، منهالاً عليهم بالرعيد والوعيد؛

كرؤيا نبيّ موله بالكوارث والفواجع، ينفث لهيباً وتحرق أنفاسه الأرض التي تقع عليها فتحوّلها إلى رماد؛

كالإعصار؛

كباب منيع يُقرع خفيفاً ثم ينصاع منخلعاً مستلقياً على طوله تحت الضربات؛

كالانفجار يقع في بقعة واحدة، ينفلش كالفطر العملاق، ثم

ينكسر متشظّياً ومتناثراً كالزجاج؛

كليلٍ يُلَيِّل قبل الأوان فيسقط ثمرة فجّة مهترئة في حضن النهار؛

كريح عاتية تقتلع الأشجار والأنهار والبيوت والصلوات؛

كفأس تهوي دفعة واحدة فتنطلق الدماء غزيرة جارفة كالسيول؛

كبناء تُدَكّ قوائمُه فينكسر راكعاً ثم يكبو ركاماً من الحجارة والحطام؛

كسهم طائش يصيب هدفه في القلب ويُرديه صريعاً قد أُيْبِس لسانه؛

وكصرخة يتيمة تتسلّق الهواء لتطعن صدر سماءٍ ممسوخة ترسل وابلاً من البَرَد الأسود الصغير وكرةً تقشعرّ لمرآها الأبدان...

مصعوقين صاغرين إلى الأرض، وقف الركّاب يراقبون آخر حبوب الزيتون التي كانت لم تزل تبحث لها عن مستقرّ لتستريح فوق الرمال. كان رجلُ الأمن على سطح الباص، سابحاً في عرقه بالرغم من برودة تلسع الأطراف. وكان مرأى ذلك الكيس الكبير الذي رمى به فطجّ وانفلش على إسفلت الطريق مُرسِلاً محتواه في كل الوجهات، أكثر وقعاً عليهم من كل ما سقط من متاع.

لم ينتبه أحدٌ بادىء ذي بدء، لتلك الكرة المعتمة التي تدحرجت ثم استقرّت غامضة الملامح والهوية بين حبوب الزيتون التي ملأت الأرض بالتماعات تضيء خافتة كنجوم تتكاثر حول كوكب جاء

زائراً من كون بعيد... بعد حين، لحظ رجال الأمن هذا الجسم المستدير الغريب، فما كان منهم إلاّ أن وثبوا إلى الأمام وانبطحوا على البطون وأيديهم تحمي الرؤوس وهم يصرخون : متفجّرات!!!

عمّت البلبلة صفوف الركّاب أيضاً، فراحوا يُطلقون الصيحات ويوشكون على الهرب في الرمال، لولا أن صرخ فيهم السائق بعد أن لعلع فوق رؤوسهم الرصاص: انبطاح!!!

ثوانٍ مرّت وكأنّها دهر، كان يُسمع خلالها إصطكاك الأسنان عنيفاً صاخباً متكتكاً كقنبلة موقوتة ستنفجر بعد قليل. ثم ذاك الطير الكاسر العملاق الذي يقفز من على ظهر الباص ليحطّ على قائمتيه، فيسير وئيداً ثم يقترب من الجسم المستدير الغريب مادّاً فوهة الرشّاش، مستكشفاً ما عساه يكون هذا الشيءالمتكوّر المنغلق على سرّ دفين.

في الأرض، كانوا جميعاً. تزحف نظراتهم على ظهر رجل الأمن وقد وضع رشّاشه جانباً وانحنى ممعناً في التقصّي والمعاينة والملامسة. وما هي سوى لحظات، حتى رأوه يستقيم ويستدير ناحيتهم بوجه مكشوف اللثام ترتسم عليه ابتسامةُ الانتصار، فيما كان يرفع الرأس المقطوع من شعره كأنما ليُري الجموع المصير الذي إليه ستؤول.

كان الوجه سائباً لا ملامح فيه. رأس بلا وجه أو جسد يحتكم إليه. رأس بشعر نابت وبقية عنق اجتُزّ من الوريد إلى الوريد. جلد مهترىء وماق أنتنت بديدان تنغل فيها حثيثة في سعيها عمّا تبقّى لها من قوت. لحم متواطىء مع الزيتون، الزيتون الأسود الذي ملأ الأذنين والمحجرين وفماً انفتح على الهاوية كأنما لصرخة بقيت عالقة فيه...

- ٢٣ -

أظلم الليل في تلك الساحة الضيّقة المستطيلة حيث تكدّس السواد سميكاً ثقيلاً راكداً أشبه بمستنقع يطفو ما بين السماء والأرض، لا تحركّه الأنفاس المتقطّعة ولا ينيره قمر أطلّ خفراً من كوّة مرتفعة مرسلاً عموداً من نور أغبر فضّي سقط سهواً بين أربعة جدران.

الليل.

وصمت يضجّ بأصوات وقعت في البئر او تراكمت فوقها الوسائد لتُميتها خنقاً في المهد.

الليل.

وبهائم متحاشرة تستلقي فوق نهاراتها المعجونة بطحين العرق والحمولة والتبن. اجساد كأنها كتلة متلاحمة تموج إن تحرّك احدها، واعين صاغرة لا يرفّ لها جفن وهي تستعيد وقع العصي والسياط واسياخ الكي. صدور تعلو وتهبط، وقوائم نَخَر سوس الخوف عظْمها، فراحت تنتفض كطيور ذبيحة تنزف دماءها في الأرض. وبر ملتصق. دبِق. لزِج. وجلود متقرّحة نتنة تنزّ ندوباً ورائحةً كريهة يرعى فيها الذباب.

الليل. ثم حظيرة وقطيع.

بين العلف والسماد وبراز الذعر وعفونة الخضوع وانتظار صبح يخطّ الدرب التي ستسوق الماشية إلى السُخْرة أو إلى الذبح.

كان الرأس المتخثر لايزال ماثلاً أمام عيون الركّاب، والضرب بالأيدي والأقدام وأعقاب الرشّاشات الذي انهمر عليهم بين الصفع والرفس واللكم، جعلهم يوقنون بأن امتناعهم عن الصراخ لم يكن سوى للابقاء على معداتهم التي صعدت إلى ما تحت الأسنان، حينما انقضّ عليهم الملاكمون الأربعة المتمرّسون جيّداً بمثل تلك الألعاب.

يذكرون أنهم في البداية حاولوا الاحتماء بالشرح من خلال تأدية أدوارهم كشهود عيان. لكن، لم تكن جملهم المبتورة -وحتى تلك المصحوبة منها بالحلفان والقسم والتوسّل والاسترحام- سوى دروع هشّة تكسّرت على رؤوسهم. من الجهات الأربع، هجم الأربعة عليهم وحشروهم في حلقة كانت تتقلّص كلّما ازداد الخصوم ضراوة، إلى أن انتهوا شبيهين ببركة تطفو على سطحها الأشلاء.

يستعيدون ما جرى لهم ويفاجئون أنفسهم يفكّرون كجماعة، لا كأفراد. يخسرون جماعة، وفي رأس كلّ منهم صورة بهيمة عملاقة انهال عليها السائس بالشتائم والسياط. يوجعهم الضرب الذي تلقّوه في جسم الآخر، ويُطلقون العويل الذي خرج من أفواه الآخرين.

منذ بداية الرحلة والطريق، لم يخطر في بال أيّ منهم أن يقوم بعملية حساب. أمّا الآن، فيشعر كلّ منهم أن في صدره قرع اثني عشر من القلوب. يذكرون جيّداً أنهم ردّدوا وصرخوا وقالوا إنهم

ليسوا أصحاب كيس الزيتون بعدما تقرّر أخذهم إلى التحقيق؛ وأنهم في حياتهم كلّها لم يبصروا هذا الرأس العجيب؛ وأنها المرأة الحامل التي صعدت معهم ثم ولدت في الطريق... ويعرفون أنه من المستحيل أن تكون السنتهم قد تلفّظت مجتمعة وفي آن واحد بنفس الكلام. وحين يجهدون في استحضار اسم من قال هذه الجملة أو تلك، لا يحضرهم إلاّ جسم واحد لمخلوق مسخ عملاق.

هل هي مساحة تلك الزريبة التي جعلتهم يشعرون ولو للحظات أنهم كالقبيلة، إن وقع مكروه لفرد منها، أصاب الجميع؟ أم هي أبدانهم التي تلاصقت بفعل ضيق المكان فجعلت مياههم تتخالط مشكّلة مياه نهر وحيد؟

يجلسون في صفّين متقابلين نساء ورجالاً. تتلامس أرجلهم وتتكاتف أذرعهم، فتسيل في شرايينهم المتشابكة كالأوعية المتّصلة، نفس المشاعر والأحاسيس. عندما استفردوا بهم الواحد تلو الآخر بعد أن ساقوهم إلى المخفر القريب ودكّوهم في غرفة الإيقاف، لم يقلقوا لخيانة ممكنة ولم يساورهم أن يشك بعضهم في بعض. فقد كانوا يرون بوضوح مخيف النفق المعتم الطويل الذي حفره أنينهم المشترك تحت التعذيب، ذلك النفق الذي ما ان يقبل الصباح، حتى يلجوه سوية مقتادين بحبل براءتهم الواهن الهزيل.

هكذا كانوا، كلّما تقدّم الليل عليهم، يشعرون بنصل الخوف يزحف على أطرافهم كأنما ليقطّعها معيداً لكلٍ منهم قائمتين وعينين وفماً يلوك الذعر ويتمنّى لو يستطيع بصقه في وجه الآخرين.

ها هم. وقد عادوا يجتمعون أصدافاً رماها البحر على الرمال، فانفتحت لثوان ثم عادت تنطبق على كائنات ليلية فضحها ضوء النهار خلسة، فانكمشت على ذاتها تحمي بيضها الفاسد، كالمحار...

- ٢٤ -

... حرام عليكم يا خلق الله، هل أحمل مرآة مكسورة كل هذه المسافة ولجهاز ابنتي العروس؟ إذا كنتم لا تصدّقون أني اشتريتها جديدة خالية من أية خدوش، فما عليكم سوى الذهاب إلى السائق لاستيضاح الأمر منه...

ينبغي لخدّوجة أن تسأله عن اسمه وعنوانه، هكذا يكون لها على الأقل شاهد على ما جرى لها لو شمت بها أهل العريس وشكّكوا في أقوالها او اتّهموها بالغشّ والاحتيال ... مسكينة يا مريم! عاثرة الحظّ منذ ولدت . وكأنّ الشؤم الذي يلتصق بي، يلاحقك أنت أيضاً بالنحس.... لو كان في ما حصل عقاب لي أنا ، فما ذنبها هي يا ربّ...؟

المهمّ ألاّ تليني يا خدّوجة مهما حصل، فتصرّي على صحّة ما تروينه إلى أن يقتنعوا... رغماً عن أنوفهم سيقتنعون! ماذا لو أخذت من رجال المخفر شهادة تثبت أنهم كانوا وراء الأضرار التي لحقت بالأثاث؟ ألم يكفِ ما أصاب الفِراش، كي تتبعه المرآة الجميلة الكبيرة وهي أثمن وأحلى ما في الجهاز؟ أجل، ستطالبهم بتعويض الخسارة التي سبّبوها. تعلم خدّوجة أنهم سيرفضون، بل هي على يقين من أنهم سيرفضون بل ربما ضربوها... لا يهمّ. يجب أن تعاند وتلحّ حتى تُدخِل في أدمغتهم الغليظة أنها لن تسكت ما لم تنل مطلوبها: حسناً، لا تريدون دفع تعويض؟ أعطوني إذن ورقة تُثبت أنّ

جهاز ابنتي العروس كان يلمع كالبلّور، بل كالشمس حتى، قبل أن تُنزلوا به الأهوال...! مهما قاوموا ومانعوا وفعلوا، سينتهون إلى القبول. فخدّوجة، حين تضع في رأسها أمراً، لا تتراجع عنه قبل أن تصل إلى مبتغاها وتحقّق مرادها...

من مرّ مثلها بظروف كتلك التي عاشتها، يتمرّس جلده ويقسو كجلد التماسيح، ويتحوّل لسانه -وهو سلاحه الوحيد- إلى شفرة حادة وقاطعة يُحسَب لها ألف حساب... السفّاحون، سيرون! ضربونا كما لو كنّا من البهائم، هؤلاء السفلة الذين لا يقيمون اعتباراً لعجائز أو حُرمة لامرأة أو طفل بريء! يرموننا هكذا مع الرجال في حجرة واحدة لا تزيد عن ستة أمتار؟! غداً، أرفع شكواي إلى... إلى من؟ وكلّهم سواسية من كبيرهم إلى صغيرهم... آه لو يطلع الصبح. أكاد أختنق في هذا الحرّ تزيده قرفاً رائحةُ هذه الأقدام المنتنة التي لم تغتسل منذ دهر...

حسناً أن مريم غفت. ألقيتها في الأرض ونمت فوقها كي أحميها من الضرب واللكم... حشرتُها في زاوية الزنزانة كي لا يمسسها أحد من هؤلاء الركّاب الخنازير... حظّي كبير أن من قبع قبالتها كان ذاك السكّير. أتميّز وجهه بالكاد، لكني أحزر عدم أذيّته من شخيره وجلبة غطيطه في النوم... لو سوّلت النفس لأحدهم أن يلمسها بطرف إصبعه، أن يلمس ثوبها أو مجرّد شعرة من رأسها، لأكلتُه وما أبقيت حتى على العِظام! ولأمُت من بعدها إذا كان ذلك ينقذ شرفها ويحفظها من السوء... مريم، والله يشهد على ما أقول، أنتِ أعزّ من ابنةٍ لي وأغلى على قلبي من الروح...

ويلك يا خدّوجة، لا تنسين أبداً ولا تصدّقين أنها لك بعد كلّ هذا العمر الطويل؟! ويلي، أيكون ما يحصل عقاباً لي على ما ارتكبته في ذلك الماضي السحيق؟ أموت ويُدفن سرّي معي في القبر... تكوي السياخ بدني وتُلهب السياط جلدي ولا أعترف لأحد في العالم، ولا

لربّي ربما، أن هذه البنت من صلب امرأة سواي... أجل، التربية والمعاملة هما الأصل... لو وَضَعَتْ امرأة في مستوصف وأعطوها على غير علم منها ولداً آخر غير الذي ولدته ، فربّته وأحبّته حتى شبّ ثم عادوا إليها وأخبروها بالحقيقة، أفتستبدله آنذاك بذلك الذي نزل من رحمها؟ لا واللّه! فمريم أغلى على قلبي من روحي ولا أستبدلها بذهب الأرض كلّها وكنوزها... أنت يا ربّي شاهد عليّ، ولتحرقني نيران جهنّم إذا كنت أكذب في حرف...

حملتُها وضممتُها إلى صدري حين لم يكن لها من العمر سوى بضع ساعات. مرضت أمّها -ضرّتي- وظلّت تنوس إلى أن انطفأت كسراج خلا من الزيت... ظللتُ أدعو عليها وأتمنّى لها الموت، حتى استجاب لدعائي وخطف روحَها... رحمها الله، كم كانت لئيمة وعاتية ومتعنّتة وكم استبدّت بي!

حين أتى بها إلى الدار واستفرد بها وأغلق عليهما الباب، شعرتُ وكأنّ يداً امتدّت إلى جوفي وراحت تمزّقه بسكّين... بكيتُ ونحتُ وضربتُ رأسي في الحائط وتمنّيتُ الموت : يتزوّج عليّ أنا بعد أن نذرتُ له عمري وشبابي؟! يأتي بفتاة في العشرين لتستبدّ بي؟ فقط، لو لم يكن لي حوض امرأة عاقر، لو لم يكن رحمي يابساً قاحلاً كأرضٍ جدباء لا خير فيها، لما عرفتُ كل هذا الهوان والذلّ ...

جاءني ذات ليلة وقال : يا خدّوجة، نفسي في ولد يخرج من صلبي ويحمل من بعدي الاسم والمفتاح... سكتُّ. بماذا كان يمكنني أن أجيب؟ قال: تختارينها لي، فقلت : أنت سيّد الرجال فاخترْ من تشاء وأكون خادمة لها ولك. مسح خدّي بيده وقبّل رأسي، ثم جاءت هي وعاثت خراباً كالإعصار... أسابيع وحملتْ. أسابيع!! تتبختر أمامي ببطنها المنتفخة، ثم تغرّب بعينيها وتناديه. يهبّ واقفاً ويروح إليها. يركع ويدلّك يديها ورجليها. يركع! أقول له دلع نساء، فيعبس بي ويقول : وما أدراك أنت، ما أدراك يا خدّوجة بأعراض الحمل؟

حرام عليكِ أن تظلميها بهذا الشكل... حرام عليّ أنا؟! أكشف رأسي وأشقّ ثيابي وأضرب على صدري بكامل قوتي : فلْيأخذكِ اللّه ويُرِحْني! فلْيفطس الجنين في بطنك حتى ينتشر السُمّ في حوضك ويهترىء رحمك وتذوقي ما ألاقيه من عذاب!!

تتكوّر بطنها وتزداد انتفاخا، فتشهرها في وجهي وتجول بها في الدار. وحين يعود رجلي، تخطف لونها وتمصّ خدّيها وتتظاهر بالوهن والوحام والتعب والمرض والدوار... أكاد أنفجر. أكاد أُجنّ. لو أدسّ لها السم. لو أدخل عليها في الفراش، فأرفع الوسادة ثم أضغط وأُلقي بثقلي عليها حتى تختنق وتموت. لو...

حتى أشارت عليّ إحدى الجارات -وكانت ترثي لحالي ويحزنها أني أعاني الأمرّين- فهدتني وأمسكت بيدي وقادتني إلى الحلّ : تستحضرين بيضة دجاجة بنت يومها يا خدّوجة، تنزعين ما بداخلها وتضعين فيها دودة. وليكن ذلك يوم ثلاثاء، ساعة المرّيخ الأولى منه أو الثامنة، ثم تكتبين عليها الطلسم التالي : وفجّرنا الأرض عيوناً، كذلك يجري الدم من فرج فلانة بنت فلانة دماء وماء أصفر مسترسلاً لا ينقطع أبداً. بحقّ هذه الأسماء، داير لسانال دحال لاعرال وكمطاع... ومن ثمة تحرقين بخوراً مع شعر قطّ وقشر ثوم وكبريت وميعة سائلة وتردّين : توكّلوا يا خدّام هذه الأسماء واجروا دم فلانة بنت فلانة. يا قاهر يا قهّار، يا قادر يا مقتدر، يا جبّار يا منتقم يا عزيز. أجيبوني وانزفوا الدم من فلانة بنت فلانة فلا ينقطع لا ليلاً ولا نهاراً... ثم تدفنين البيضة في قبر لا يُزار، وتسدّين عليها فيكون لك ما تشائين...

وتردّدت خدّوجة في البدء. ماذا لو افتضح أمرها ووشت بها تلك الجارة إلى زوجها او أخبرت أحداً من أهل الحيّ؟... ثم نامت على سوء النيّة قائلةً : لا يغفر لي ربّي وفي بطنها جنين...

وولدت مريم جميلة كقلب النهار، زهرية وبيضاء كاللّفت. بكى أبوها بادىء ذي بدء. يريد صبيّاً. فأطيّب خاطره وأغسلها وأطيّبها وأمشّط شعرها القليل وأحملها له، فيستدير عنها ويحلف ويُقسم أن بالاً لن يهدأ له، حتى تجيئه ضرّتي بالصبيّ... وماذا لو جاءت به بالفعل؟ أصابني مسّ. وحين ستقوم من الفراش، ألن تخطف مريم منّي وتمنعني عن حملها بين ذراعيّ؟ مريم لي وأنا التي سمّيتها... قلت له : أُجْبُر بخاطري وسمّها مريم، فوافق وجعلني أقسم بحفظ السرّ. يخاف منها! هذا أكيد... وسرّاً صرتُ أحملها وأقبّلها وأشدّ بها على صدري وأعطيها الثدي... كم حلفتُ وبكيت فلم يصدّق أن ثدييّ انتفخا وتشقّقت حلمتاهما وانفجرتا بالحليب... لم يصدّقني وأشفق عليّ وسألها أن تبقى مريم بصحبتي جزءاً من الليل، حتى تستعيد هي عافيتها فترتاح، وأُشبِع أنا بعضاً من جوعي الى الأمومة وتوقي إلى طفل...

استشرستْ اللئيمة واستشرستُ أنا ! هي فرصتي الأخيرة قلت، أو اقتنصها قبل أن تغادر الفراش وتتماثل هي إلى الشفاء وأنا إلى مرّ الحرمان والشقاء؛ أو ... وفعلت فعلتي حتى صارت تذوب كالصابون وتصفرّ كالشمع. قلت : يستجيب لدعاء مظلومة مثلي وينتقم منها ويمنّ عليّ بالأمومة بعد طول سنين. أركع وأصلّي وأبتهل وأطلب، وهي تَهِنُ وتنحلّ وتضعف وتهزل وتفقد مياهها في نزيف كالينابيع... يا ربّ!! ومريم تنام على صدري وتستيقظ عليه، وزوجي يركض من طبيب إلى طبيب ومن مزار وليّ إلى آخر، وأنا اهدّىء من روعه واطمئنه إلى أن رحمة الله واسعة، وهو يبكيها ويبكي حظّه والصبي الذي لن يرثه ويحمل من بعده الاسم والمفتاح...

ما همّ، ما دامت مريم لا تهدأ إلاّ بين ذراعيّ وعيناها لا تريان سوى وجهي وفمها لا يبحث إلاّ عن حلمتيّ؟ يا ربّ... !!! أدعو

وأركع وأصوم وأضرب على صدري، وهي تنوس وتنوس حتى انطفأت كسراج شحّ من الزيت. لفظتْ أنفاسها الأثيمة السوداء الملوّثة بالحريق. بكيتُ. صرخت. ولولوت. هلّلت. ورأوني أصرخ من شدّة الفجيعة والحزن. صارت لي وحدي. مريم! وأصبحتُ لها الأمّ!

ولم أتوانَ. ولم أتردّد. وجعلت أتباكى وألحّ وأصرّ: لا أبقى في هذه الدار من بعدها! وأحياناً أدّعي أني رأيت طيفها يجول في الأرجاء، وأننا لو بقينا هنا لحلّت بنا اللعنة أو مصيبة ولفقدنا البنت! أنوح وأشكو حتى مرضت مريم -من أسنانها ككل الأطفال- فرضخ رجلي وانتقل بنا إلى حيث ما عادت تعرف لنا الجارة تلك -ولا سواها من الجيران- عنواناً، وحيث ظنّ الجميع أننا عائلة مؤلّفة من رجل وامرأة وابنتهما...

رحم اللّه زوجي. اندفن ومعه السرّ... وأنا أنعم بمريم وهي تنعم بي، وأخاف عليها وأسهر على تربيتها كأفضل أمّ... حتى هجم نصيبها فجهّزتُها بأجمل جهاز عروس... يا حسرتك يا خدّوجة على جمال تلك المرآة...

غداً، سيعاودون التحقيق معنا. حين يصل دوري، سأبقى ألطم وأنوح حتى أصل إلى مُرادي فيعطونني شهادة تثبت أنهم وراء كل ما وقع من أضرار...

افّ، أعْتَم قلبي. متى يطلع الفجر...؟!

— ٢٥ —

... لا ينام. يا لحظّي أن أجلس بالقرب منه بالرغم من ضيق المكان. رموا بي في هذه الزنزانة المنتنة بعد انتهاء التحقيق، فوقعتُ على يديّ فوق هذه الأجساد المتحاشرة وصرخت : نظّارتاي! ثم جعلتُ أبكي من عماي لا من وجعي، حتى امتدّت إليّ ذراعاه وساعدتاني على القيام، فأجلستاني بجانبه وراحتا تجسّان الأرض حتى عثرتا على زجاجٍ محطّم التقطتاه وأعادتا إليّ نظّارة عوراء بعين مفقوءة...

يوسف، لو تضمّني اللحظةَ إليك! تشدّني لوقت، لثوان، لدهر. خذ بيدي، أو أعطني يدك أقبلّها وأشدّ... عاشت الأسماء يا يوسف، وعشت أنت... تنهال عليّ صفعاتهم فابصق الدم راضياً ويكفيني أني سأعود وأراك بعد قليل. اضربوا بعد، ولتظهر في جسدي زرقة الكدمات، فلتسل منّي الدماء غزيرة وليتورّم وجهي وعيناي... علّك تشفق وتحنّ، تلتفت إليّ بعطف أو تحزن عليّ...

سألني ذلك المستبدّ ماذا أعرف عنك. صمتُّ. صفعني : منذ أيام وأنت تجاوره في الباص، أما قال لك شيئاً، أما حدّثك عن عمله، بلاده، لماذا جاء؟ أجبتُ بأنك أمضيت المسافة كلّها تقريباً نائماً، وأنك لسخونة أو لتعب أُصبتَ بنوبات برد. ابتسم وأضاف : معقول؟ هكذا، لم تنطقا بحرف ولم تتسايرا بموضوع؟ بلى. تحدّثنا عن ابن عبدون. من؟ وأرسل من يأتيه بالكتاب. مثقّف إذن يا أخ؟ أهلا بك.

قد وقعتَ على من يكره هذا الصنف ويرى فيه نوعاً من الحشرات تستحقّ السحق. أنتم أسوأ الأنواع على الإطلاق. متبجّحون وطفيليون وعالة على المجتمع. وفوق هذا كلّه، لا يعجبكم شيء وتنتقدوننا من دون مبرر ولأتفه الأسباب... اسمع، إن أنت تعاونت معنا...

أتعاون معهم يا يوسف، عليك؟ لو تطلب روحي لأعطيتها لك... ماذا جئت تفعل ها هنا، بالفعل؟ ما الذي أتى بك إلى هذي البلاد وأهلها؟ عَمٌّ تبحث وما هو هذا الشيء الذي يثلج روحك فجأة، ثم يُضرم فيها النيران؟ حين توقّفنا في جبل المحروس ورحت تسأل الحارس عن بني...، شعرت بك وكأنك تسقط من مرتفع عالٍ إلى واد سحيق. أهم أهاليك من فعلوا بك وأورثوك كل هذا الحزن؟

تعرف أنه يملك جوازاً أجنبياً -مزوّراً في أغلب الظنّ- قال لي رجل الأمن. قد تُتّهم بالتآمر مع جماعات التخريب، بالخيانة، بالتعامل، بالإرهاب... من الأفضل لك أن تعترف، من الأفضل أن... أأعترفُ لهم بما أصابني منك؟ أبوح بتلك المياه التي جعلت ترتفع في روحي منذ رؤياك، حتى غمرتني ورحتُ أتخبّط فيها كغريق؟

تلاصق كتفي ذراعك ، ولا أكاد أقوى على التنفّس مخافة ان تحيد عنّي أو تغيّر في وضعيّتك. أشعر بالنار، بالحريق، وسخونة لحمك تعبر أوصالي وتمسُّني كتيّار كهربائي. ما أحسّه منك أشدّ إيلاماً من صفعاتهم وكل أنواع التعذيب... قد سخروا مني يا يوسف. لم يضربوني بقدر ما سخروا، وضحكاتهم التي انفجرت بما هو أقوى من السياط، أشعرتني بما هو أعمق من المهانة وأمضى من الذلّ. ضحكوا كالذكور. كالفحول. كالوحوش، فبانت أنيابهم وبقايا الجثث لم تزل عالقة فيها...

قام يتمشّى ويطالع الورقة المطويّة التي عثر عليها مدسوسة بين صفحات الكتاب. يتلمّظ ويسيل لعابه بعد أن وقع على صيد نادر

وثمين... لم يقل شيئاً في البداية لكي يوهمني بأنه لم يفهم، كي يزيد من تعذيبي وقلقي وخجلي المخيف. سأله الآخرون عمّا فيها، فابتسم ثم رفع الورقة وقرأ : «... كان مقدّم بن الأصفر مريضاً أيام حداثته بعشق "عجيب"، فتى الوزير...» . ثم نظر إليّ فاشتعلت النيران في وجهي وطفر العرق منّي غزيراً... فتابع : «ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب "عجيب"، حتى أخذه الحرس غير ما مرة في الليل، في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة»... هو يقرأ يا يوسف والآخرون يضحكون وأنا أغصّ بحرجي وأعضّ على جرحي وأتمنّى لو تنشقّ الأرض وتبتلعني فكأني لم أكن البتّة وكأن شخصاً يُدعى مالك الرضيّ تبخّر وألغي واختفى أثره من الوجود... ولم يكتفِ اللئيم، بل دفع الورقة تحت أنفي وأمرني بمتابعة القراءة... اقرأ يقول لي، وهو ممسك بشعري بيد وبالورقة بالأخرى... تابع القراءة يا كلب، وإلاّ قطعت لسانك فما استطعت استعماله من بعد... طفرت الدموع من عيني يا يوسف، فمسحتها وقرأت : «وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه، فيوجعه ضرباً ويلطم خدّيه وعينيه ويقول : هذا واللّهِ أقصى أمنيتي والآن قرّت عيني، وكان على هذا زماناً يماشيه»...

يا يوسف. لا أعرف كيف حزر ذلك اللئيم. الآخرون شمتوا وتضاحكوا وهزئوا وسخروا، فكانت تعليقاتهم تنزلق على جلدي كأني من الزيت أطفو وأنفصل ولا يُقبض عليّ... حتى رأيته يصبّ رغبته فيّ... رغبته هذه، حوّلتني إلى وعاء فارغ يتوق إلى الامتلاء... وتملّكني الذعر يا يوسف. لا منه، بل ممّا كان يصيبني وأشعر به، ومن ذاك الذي فاجأته في داخلي ولم أكن أعرف له وجوداً من قبل... تحت نظراته، تحوّلت إلى شخصين اثنين . وانقلب الاثنان هذان عليك ، فراحا يفكّران في ابتداع أمر يلهيانه عنهما. عنّي. كنت سأخون يا يوسف. أختلق قصّة عنك. أبوح وأعترف بما يودّون سماعه. فيستدعونك ويرتبط مصيرك بي ومصيري بك... لم تكن أنت همّي يا يوسف. كان هاجسي الوحيد أن أهرب من رغبتي به، رغبتي التي خلقتها الرغبة الفاجرة التي ارتسمت في عينيه...

ما الذي جاء بك إليّ؟ إلينا؟ ألم تكن تعرف؟ ألم يقل لك أحد؟ ألم يحذّروك منّا وينبئوك بأننا فاسدون حتى العظم، نقتل ونشوّه ونكذب كالأكل والشرب، ثم نغفو مطمئنّين أبرياء من أي ذنب؟ يا يوسف، أعطيك روحي. لكنك لا تلتفت إليّ، فتأخذني رغبتي فيك إلى الانتقام والدناءة والسفاهة والجبن. وأتمنّى لو انتزع روحك من بين أضلاعك، فأعصرها وأمعسها بين يديّ. وأخون...

صمت اللئيم وظلّ يحدّق بي. وأنا أتضاءل وأتحوّل إلى حجر، صرصار، ذرّة غبار... وقف بقميصه المبلول المنشقّ على صدره الموبر، ثم وضع يداً في جيب بنطلونه واستدار عنّي الى النافذة حيث كان الليل أقلّ سواداً من الأفكار التي تعبث بي... قال للآخرين : أخرجوا الآن، وسوف أتولّى بمفردي متابعة التحقيق... هو الذي خلّصك. أنقذك منّي يا يوسف ولولاه، لكنت الآن بين أيديهم تعاني أشدّ أنواع العذاب...

في وسط الغرفة جلست، بعد أن أمرني بالجلوس. وحين استدار نحوي، كنت أنتفض كسمكة علق نصفها في الهواء، ونصفها في الماء؛ كصرصار مقلوب على ظهره يحرّك أطرافه ويتخبّط في مكانه فلا يقوى على الوقوف... بطيئاً، تقدّم وانتصب في مواجهتي، فحاذى وجهي صدره وبطنه وتفلّتت رائحة عرقه وراحت تكيل لي. خفضتُ عينيّ ألوب على منفذ، فتناول يدي ووضعها أسفل البطن وهمس : أيثيرك حجمه؟ لو اعترفت، وضعتُه فيك وأذقتُك ما لم تعرف له طعماً في حياتك قبل الآن...

سحبتُ يدي بسرعة وصَمَمْتُ أذنيّ براحتيّ كي تمتنع عنّي نصال صوته، كي أحتمي ممّا كان يقول ويفرشه لي. سكت يا يوسف ولم يتحرّك من أمامي. وشعرت بالإثارة توقف جريان دمي في الشرايين... ضرب الكرسي من تحتي، فوقعتُ. حملني من كتفيّ ودفعني أمامه إلى الحائط وحشرني فيه... سال الدم من أنفي وفمي

لأنه كان يداعبني ويضرب رأسي في الحائط ويصبّ في رقبتي كل أنواع البذاءات...

لم أقاوم. ولم أتشكّ. ولم أفعل شيئاً يجعله يرتدّ. ولم أعترض. ولم أحتجّ. ولم أتظلّم. ولم أتهدّد وأتوعّد بأني كاتب محكمة وعلى علاقة بالأمن والقضاء والعدل. لم أتلفّظ بحرف يا يوسف، لخوفي أن يبتعد عنّي فتنقطع حبال شهوتي التي توثقني إليه.

وأمتعني...
وتمتّعت...

حقير أنا يا يوسف ولا يؤمن لي، فما الذي أوقعك عليّ؟ ما الذي أوقعني على هذا المستنقع المنتن المختبىء في قعر روحي، يعجّ بالديدان والعفونة والقيح؟ بودّي لو يغمرني العار. لو تخلع ريح المذلّة صدري. لو تسري في شراييني سموم الندم والذنوب. لو أتقيّأ روحي يا يوسف. لو تضمّني اللحظة إليك. لو أموت...

- ٢٦ -

- فقط لو يتحرّش بي فأفضحه بين الجميع! لم يرفع عينيه عنها منذ سلّمت نفسي له... يفضلهنّ عذراوات كمريم، صغيرات السنّ لم تمسسهنّ يد... كصاحب ماشية لا يهدأ له بال قبل أن يَسِم قطعانه بأسياخ الكيّ... أمدّ رجليّ وأباعد ما بين فخذيّ كي يحشر قدمه بي... من بصيص عينيه، حزرت مكانه في الزاوية وأقسمت : لن تفلت منّي يا عبد الفتّاح ولو بحياتي! وقفت وقلت لمن جاورني من الركّاب : يكاد يُغمى عليّ، هلاّ أفسحتم لي فأعبر إلى الزاوية، فأنا امرأة ولا يصحّ أن أجلس بين الرجال... تبعني محسن. تظاهرت أني تعثّرت حتى لامست بيدي رأسه وتيقّنت أنّ من يقبع قبالتي هو عبد الفتّاح... يُلقي محسن رأسه إلى الحائط ويغطّ ... لا أخشاه وأعرف نومه ثقيلاً إن رسا، لا يقطع حبل مرساته لا حتى الانفجار...

- الفاجرة! لا تخاف زوجها ولا حتى الفضيحة أو الناس... تتلوّين منذ ساعات وتتمسّحين بي كقطّة مسعورة تأكل النار جوفها... ما الذي تبيّتين يا حسنية وعلى أي شرّ تنامين؟ عرفتُ أسراباً هائلة من النساء، ومازلت لا أفهم الى اليوم وبالرغم من سنيّ خبرتي الطويلة بهن، أهي عقولٌ تلكّ التي تحتويها رؤوسهن أم عفاريت لا منطق لها ولا قانون؟ تتمنّعن في البداية. دائماً. ثم حين نستدير عنكن، تعدن إلينا وأنتن تشهرن الدروع والتروس كمن يدخل في حرب من أجل قضية لا تستوي من دونها الحياة ويهون

أمامها الموت. لا توقظكن إلاّ الرغبة المفخّخة المزروعة بألف لغم ولغز، فترتمين عليها وأنتن موقنات من أنها ستنفجر فتودي بكن إلى الهلاك... لكن، ما همّكن. فأنتن فدائيات الغرام والعشق والوله والتيم ...

– يحرّك بؤبؤيه، فأرى عينيه تلتمعان فاجرتين في العتمة وأودّ لو أفقأهما! يتفاداني ويتحايل عليّ، وامتلىء بالمرارة والغدر والقهر... لستُ أنا من يدير الرجال لها ظهورهم يا عبد الفتاح! ليست حسنية من تشعل ناراً في جوفهم تنطفىء بعد قليل... ليتك تحاول فقط، فأدّعي الامتثال والخنوع للحظات، ثم أرفسك في بطنك حتى تطلع روحك من بين فخذيك، وأبدأ أنا بالصراخ... بإمكاني أن أفعل ذلك دون أن تقدم على أي شيء. مريم ستشهد لي، وخدّوجة عليّ. لا ينقصني الشهود ولا الشجاعة ولا اللسان، ولا تلك الرغبة المتعاظمة بالانتقام منك... باستطاعتي أن أخرب عيشته بكلمة منّي، بحرف، فأذيقه المرّ كي يبقى يتذكّر حسنية حتى الممات... أرفع ردائي وأحكّ فخذيّ. أعرف أنك تسمع احتكاك أظافري بالجلد... أسمعه يبتلع ريقه ويكاد يغصّ به، وأنفاسه التي تحرن مثقلة منهكة لثوان، ثم تستجمع قواها فتنتفض لتتابع المسير... ماذا يظن؟ ينال مراده منّي، ثم يرميني كالخرقة بعد أن هدأت رغبته بي؟ أعدك أنك سترى منّي الهول يا عبد الفتّاح، فتتأكّد أن حسنية ليست كسائر النساء! على كم واحدة دست بحوافرك حتى الآن؟ خمسين، مائة، ألف؟ بودّي لو أراك كذلك الراس المقطوع، جثة هامدة تعبث فيها الديدان... لا. أن يأتيك العذاب بطيئاً، متمهّلاً، فتتذوّقه على جرعات... أيها اللعين. اخلع حذائي والامس بأصابع قدمي رجليك، فتجفل وتسحبهما متربّعاً عليهما....

– مرّة واحدة يا حسنية، لا أكثر. ولو على قطع راسي! ألم تفهمي بعد؟ تستحقين عشرات المرّات، تستحقين أن يكرّس لكِ الواحد عمراً بحاله، لكن لا يسعني وشعاري يبقى : مرّة واحدة لا

مـرّتين! اهدئي يا امـرأة وكـفّي عن التـحـرّش بي... أحـزر منكِ تضاريس تثير شـهيّتي والجوعُ إلى القنص يوجعني عند هذا الليل، وأنت لا تفكّرين إلاّ بشـهوتك بالرغم ممّا ينتظرنا في الغـد... هكذا أنتنّ، تقوم الدنيا وتقعد، تشتعل حروب، تقع زلازل، تنفجر براكين، وأنتن لا تفكّرن إلاّ بالجنس! أصـابعك تجول على فـخذيك الرائعين تهرسان الجلد، وأحزر خطوطاً حمراء تتشكّل فوق اللحم النديّ... أوشك ثم أتراجـع... أعرف أن اللغط كلّه يبدأ من المرّة الثـانيـة، وأن الشِباك التي تنصـبينها لي تزيدك شراسـة إذ تنغلق عليك من دوني، فتتخبّطين حتى يصيبك الإعياء. تستريحين قليلاً، ثم تعـاودين الغزل والحياكة والطرز، لعلّي، لعلّك، لعلّ العنكبوت تغوي بخـيوطها ذلك الصرصار، فـيأمن ويقترب ليتـمدّد فوق نسيج سرير مـا يلبث أن يلتفّ حوله كالكفن ويبتلعه كالقبر...

– إلى أين تذهب يا عبد الفتّاح؟ الحائط وراءك وأنا أمامك والليل بيننا طويل وأنت مـحشـور بين طراوة جسـدي وقسـاوة الجـدار... ستنتـهي بأن تميل نحوي غـصباً عنك. منذ سـاعات وأنت تعـاندني وأنا على يقين من أنك تخـاف منّي كالطاعون... تخشى أن أشي بك إن أنت تحرّشت بي؟ الأجدى بك أن تخـافني إن لم تفعل مـا يهدّىء روع توقي إليك وولعي بك... أتقنكم كـراحـة يدي. عن ظهـر غـيب. تمرّستُ برغباتكم تهيم على دربي وتستجدي جسمي ككلاب تلوب من الجـوع... أتذكر قصـة الجنينة التي رويتُـها فـي البـاص يا عـبد الفتّـاح، فمـا اسـتدرتَ إليّ طوال الطريق، وحين سـألتني مريم لماذا امتنعتُ عن الجنينة وأجبتُـها : أضـاع أبي المفتـاحَ فتزوّجتُ...؟ أنا من ضـاع يا عبد الفتّـاح، كنتُ أفكّر، وكم كنت أرغب بإفـلات نفسي فـأشـهق بالبكاء وأُطلق دموعي على سجيّتـها بعد طول احتباس... الجمال لعنة يا عبد الفتّاح، والخوف ربّ الكذب وسيّده الوحيد... ما الذي أعادني إلى ماض خلفته ورائي وأقفلت عليه وأضـعت المفتاح؟ أشكو إليك، وأعرف انكَ أسوأهم وأحقرهم على الإطلاق... مـحسن لا ذنب له. مـحسن ليس زوجاً، لكن لا دخل له... هو ابي الذي قال :

أو تقبلين به أو يكون مصيرك الذبح... لو شكوت إليك أبي، لضحكت منّي وقلت : لا شيء يقوى على النساء... لعنك الله يا عبد الفتّاح. لأني كالمهر كنتُ. أصيلة وجميلة كالمهر. إلى أن أوثق قوائمي وأحنى رقبتي وكسر روحي ومرّغ أنفها في التراب...

– همدتْ ... أيأساً أم تعباً، أم هدنةً تنقضّ عليّ من بعدها في هجوم أخير؟ لعن اللّه جنس النساء...! هداكِ اللّه يا حسنية وأراحني منك ! قسماً به، إني أخافك أكثر ممّا أخشى التحقيق والتعذيب والضرب والسجن... متزوّجة أنت يا امرأة، فكفّي عنّي والتفتي إلى زوجك ينام على زندك كالرضيع.... ماذا لو ركلتُه برجلي وأيقظته؟ ماذا لو قلتُ له : احفظ شرفك يا قصّاب وردّ زوجتك عنّي؟ ماذا ستفعلين حينها؟ أجيبي... ستنقضّين عليّ وتعضّينني في عنقي، في الوريد بالذات، حتى تجفّ شرايييني وأقع قتيلاً من دون حراك... لبوة يا حسنية.... وذكية فوق هذا كله. لكنّ خطرك يجمّد الدماء في أوصالي ويبثّ فيّ الذعر... ماذا لو مددتُ قدمي وحشرتها بين فخذيك، أفترتاحين وتهدأين؟ لو أستطيع المخاطرة يا حسنية، أقسم بأني كنت فعلت... لكني لا آمن لك، إذ ما الذي يمنعك من الصراخ والادّعاء بأني أنا من يتحرّش بك... لا يا حسنية! لا تنوحي، وفّقك اللّه... ويلك يا عبد الفتّاح... اهدأي... يا للمصيبة... باشرتِ الهجوم إذاً...؟ حسناً. ربحتِ يا قحبة! سأمدّ قدمي، وإلاّ لن يستقرّ لكِ حال... أجل، افتحي فخذيك يا حسنية. أكتمي نفَسك، وأمري للّه....!

— ٢٧ —

أما كان يجدر بي أن أعترف مباشرة؟ وهل سيصدّقونني حين يكتشفون حقيقة الأمر؟ غداً، حين يطّلعون على ملفّي الرائع، سأصبح أوّل المتّهمين... تبّاً لك يا معاوية، ما الذي أطلق لسانك بالكذب منذ خروجك من السجن؟ لكن، كيف كان لي أن أقدّر أني سأعود وأجد نفسي متّهماً بجريمة ارتكبتها تلك البوم السوداء... غريب، نغزل كذبة بيضاء، ثم نغرق في أحشائها كفريسة تعصرها أطراف أخطبوط...

قلتُ لهم وحذّرتهم مراراً. الأغبياء! لو لم يحملوها معنا في الباص لكنّا الآن في أمان... ألم يكفني كلّ ما دفعتُ من سنوات؟ فقط لو تركوها حين بدأت تشكو من آلام الوضع، لكانت تذكّرتْ حتماً كيسها المشؤوم، ولكنّا رميناهما معاً على الطريق... الخبثاء! يدّعون فعل الخير. لكنهم كالعقارب، ما ان تأمن لها حتى تلدغك بالسُمّ...

آه من النساء... ينبغي معسهنّ كالحشرات... السافلة! زعمت أنها تودّ العودة إلى قريتها بعد أن ضاع زوجها في البحر. أراهن بحياتي أنها تخلّصت منه ليتحلّل لها كل رجال الأرض... المسكين! فظّعت به وقطّعته ككلب. كعجل للذبح... الحيوان! لو كان رجلاً بالفعل، لجعلها هي تسبقه إلى هذا المصير... تبّاً لها ولكل النساء لا يؤمن لهنّ... تبّاً لكم جميعاً أنتم أيضاً. يا ليتني لم أستقل هذا الباص. يا ليتني تأخّرتُ قليلاً، فلم أجدْه...

يكزّ معاوية المطماطي على أسنانه من الغيظ والقهر. يشعر أنهم لو طعنوه اللحظة، لما سالت منه نقطة دم واحدة لكثرة ما كان يضغط

على نفسه كي لا ينفجر بالشتائم والسباب. يحسّ بالنمل يسري في رجليه، فيسعى إلى تغيير وضعيتهما. غير أن احتكاكهما بقدمي السائق الجالس قبالته، يجعله يعدل عن مدّهما، فيطويهما مستنداً بمرفقيه إلى ركبتيه.

لو أعادوا استنطاقه غداً، لأجاب : وهل يُعقل أن أُعاقَب بكل هذه الأعوام ، فأرتكب جريمة ثانية بعد مرور ساعات، لا بل أيام، على إطلاق سراحي؟! هذه حجّة مقنعة بالفعل! ثم إنه ليس قاتلاً جوّالا يطوف ويقتل ما طاب له، إذ ما له وللغرباء؟ الجريمة التي ارتكبها كلّفته حكماً بالسجن المؤبّد تقلّص إلى خمسةٍ وثلاثين عاماً فقط، بسبب حسن السلوك... هذا ما قالوه... بعضُ رفاق له فسّروا الأمر بضيق المكان وعدم قدرته على استيعاب كمّ النزلاء الجدد الذين كان يجري القبض عليهم بالمئات...

كان في الرابعة والعشرين من العمر، وها هو الآن يشرف على الستين... سيصدّقونه. سيقول إن الجريمة تلك، نفّذها بأقرب الناس إليه. كان لديه إذاً عذرٌ شرعي وحجّة ودافع للقتل. أما ذلك الرأس المقطوع، فهو يؤكّد ويُقسِم أن لا علاقة له به البتّة من قريب أو بعيد... أجل، سيصدّقونه. حتماً. دون أدنى شكّ. فأين تراه يكون قد تعرّف بصاحب ذلك الرأس، في الزنزانة...؟

يا أللّه!! حين خطاها تلك الخطوة التي قطعت به السنتيمترات القليلة الفاصلة بين السجن والحياة، وقف وتطلّع إلى السماء وهمس قائلاً : مبروك عليك يا معاوية، عساك الآن تمضي ما تبقّى لك من العمر آمناً هانئاً في قريتك في الجنوب... رمى كيس الحوائج التي تذكّره بتلك الأعوام القاتمة، ثم سار باتجاه الميدان علّه يجد بعد باصاً يقلّه إلى حيث يقصد... وحين وقع على المعاون ينادي على الركّاب بالرغم من تأخّر الوقت، استبشر خيراً معلّلاً النفس بأن سوء طالعه قد بدأ ينقلب إلى حسن حظّ...

كان قد مرّ قبل ذلك بحانوت، ولم يستطع منع نفسه من الدخول وطرح سؤال يطمئنه إلى أن الأشياء لم تزل باقية هي إيّاها لم تتبدّل خلال فترة غيابه الطويلة... هناك، داهمه الشوق إلى ممارسة فعل يذكّره بعد زمن أنه يتحرّك ويتصرّف كسائر الناس. طلب وزناً من

السكّر وشعر بمتعة هائلة... الحقيقة، ليست متعة هذا السلوك هي التي أغوته، بل حاجته إلى إتمام فعل كان لا يزال عالقاً في ذاكرته. حمل وزن السكّر كمن وجد أخيراً طرف الحبل الذي سيجعل حياته تبدو وكأنها لم تنقطع البتّة، فيحسّ بأنه خرج لشراء غرض، لا منذ خمسةٍ وثلاثين عاماً، بل منذ دقائق بالكاد، وأنه ما أن يقضي حاجته تلك، حتى يقفل عائداً من حيث جاء...

كانت جميلة بالفعل. وكان ذاك أوّل عهده بالزواج والعشق. شابة وجميلة ولها ابتسامة ينقبض لمرآها القلب. وينفرج لمرآها القلب. حلوة وبيضاء وبضّة وعروس. كالسُكّر... ثم منعها من الخروج لعدم قدرته على تحمّل النظرات التي كان يرشقها بها الرجال حين يكون معها. فكيف يحتمل ما تكون نظراتُهم عليه حينما لا يكون؟ ثم أقفل عليها الأبواب والنوافذ والجدران كي يطمئنّ ويتمكّن من الخروج. وظلّت تبتسم...

وكالشمس، كانت ابتسامتها تكويه. كالشمس. وكانت تعميه. ولا يفهم من أين تطلع وما الذي يمكنه لجعلها تغيب... ولم يعد يحتمل... وحاصرها. وعزلها. ونسكها. ويتّمها. واجتزّ جذورها. وقطع وريقاتها. وأطفأها. وعصرها. وضغطها... وظلّت تبتسم. ولا تظهر ابتسامتُها. وإنما يحزرها في داخلها. وراء الفم والعينين. تحت. في القاع. تسيل على مهل. وتسري. وتعشّش في الزوايا. وتتكاثر. كالوباء. وتتلألأ في وميضٍ خاطف لا يمكن القبض عليه...

وما الذي يجعلها تبتسم بعد؟ وعرّاها من كل أغراضها وزينتها. وقطّع ثيابها. وباع حليّها. وأمسك شعرها. واجتزّ بالسكين... وسقطت خصلاتها كثعابين مبتورة تتلوّى على الأرض. وبانت جلدة الرأس.

والآن...؟ قامت. وعادت بمكنسة ودلو. ونظّفت. ومسحت. وهو يرى ابتسامتها تنزلق على رأسها الحليق وتنحدر إلى الظهر... ولِمَ لا تصرخ؟ ولِمَ لا تبكي وتتظلّم وتضرب رأسها في الحائط أو في جسم صلب؟ وما الذي يُعينها عليه؟ وما الذي يمنحها هذه القوة والجبروت؟ وستقتله إن استمرّت هكذا. وستقضي عليه...

والآن؟ هجرها. وأقصاها عن مخدعه. وجعلها تفترش الأرض.

https://facebook.com/groups/abuab/

وابتسامتها التي لا يراها تطارده وتجيئه في المنام على شكل عفاريت. وكالشمس. وكالنار. وكالجنّ... حتى سلبت روحه وأهلكته...

وذات يوم. وأعدّت له الشاي بطلب منه. وكان مُرّ المذاق. وغضب وشتمها وراح يبحث عن مزيد من السكّر فلم يجده. وقال إنه سيخرج لشرائه. وإنه ربما أطال قليلاً ومرّ برفاق له... وخرج. ولم يُقفل الباب. وحفر جيّداً. ونصب لها الفخّ. وابتعد. واختبأ يراقب من بعيد.

والآن؟ بقي الباب مردوداً. ولدقائق. ولم تظهر. وبدأ يطمئنّ. وخاف وانتظر بعد. وانفتح الباب. وابتسم فرحاً بما سيخرج منه. وخرجت! ووقعت في الفخ! وبقيت واقفة في الفناء الداخلي تحت شجرة الجوز. وجامدة في مكانها. ولا يرى عينيها ولا وجهة نظراتها. وما الذي يستوقفها على هذا الشكل؟ وهل خرجت لتشتمّ الهواء؟ وأجل. وما الضير في ذلك؟ وما العيب؟ ومشى. وتوقّف. وتردّد. وألا تكون قد خرجت لترى، ليراها أحدٌ ما؟ ومن؟ واستدار يعدو حتى وصل إلى الدار...

والآن؟ أمام المرآة كانت جالسة. وفي يدها قشرة جوز خضراء تحفّها على شفتيها المكوّرتين. وصار فمها أحمر نبيذياً معتّقاً. ولم تخنه. وها هي تتزيّن له. وهي وحدها. ولا خوف في عينيها. ولا ظلّ لاضطراب أو مفاجأة. واقترب. وقبّلها. وأجفلت. وتراجعت. وتقدّم. وعضّها. ووقفت جامدة بين يديه. وباردة. وكالثلج. ونفخ عليها أنفاسه المحرقة. وما ابتسمت. وسألها : ولمن إذن تتزيّنين؟ وما أجابت أنها تتزيّن له، وأنه زوجها الذي تشتهي وتحبّ... وسالت دموعها. وصفعها. وضربها. وتوقفّت عن البكاء. ولا سطوة له. وتتحدّاه؟ ولِمن إذن أيتها القحبة إن لم يكن لي؟ وجعل يضرب علّها تتلفّظ بحرف، تئنّ، تصرخ ببراءتها، بشكوى، بشتيمة حتى، ولكن، فلتنطق بشيء... واستمرّ يضرب حتى صارت كلّها حمراء نبيذية قانية كفمها الملوّث بالجوز...

والآن؟ انتهى الأمر. وكانت ممدّدة وسط بركة حمراء. وعلت

آذناها وفمها بالدم كالنوافير. وهمدت. ونضبت... وقضاء وقدر. ومكتوب. ومقدّر لها أن تموت على يديه. ولو كانت بريئة، لما أصابه العمى فراح يضرب شيئاً خاله كرة بين يديه. ولوجد مبرّراً، ولو لمرة واحدة، لابتسامتها تلك...

والآن؟ غداً سيتّهمونه بذلك الرأس المقطوع. ولا ريب. ألم يسبق له أن ارتكب فعل قتل؟ وكيف يُفهمهم؟ ويضيفون : من يقتل امرأته لأنها تزيّنت، قد يقتل رجلاً لأنه لم يرق له! ويجيب : لو كنتم مكاني لفعلتم الأمر نفسه. ولستُ نادماً على ما فعلت. وهي يد القدر اصطفتني أنا لأنفّذ المكتوب... أجل. لستُ نادماً. السجن ليس عيباً. السجن للرجال...

وأطلقوا سراحي. وأبقوا على ذلك المعتوه الذي ثقب طبلة أذني بكلامه عن النضال... لو عرف بأني انتحلتُ أخباره، لكان فرح مهلّلاً معتبراً أن خروجي من السجن بمثابة خروجه هو من الأسر... ونغّص عيشتي بحكايا صديقه جميل البغداديّ. وحفظتُها عن ظهر قلب. ورحتُ أسمّعها لهؤلاء الخبثاء كما لو كانت محفورة على كفّ يدي او في كتاب ذاكرتي المفتوح. وما الفرق؟ لم يكن ما قلته كذباً حتى ولو كذبت. وحتى لو كان الآخر كاذباً واختلق كل ملاحمه في النضال. وما ذنبي أنا إن صدّقت...؟

وكذبتُ. وصدّقوني! واعتبروني! وتركوني في حالي...! ولو اعترفتُ لهم بحقيقتي، فهل كانوا يعاملونني بالمثل؟ لا واللّه. والناس عقارب ما ان تأمن لها وتمدّ يدك، حتى تلسعك بالسُمّ...

والآن...؟

- ٢٨ -

- ...
- يتيمٌ إذن يا مسكين؟!
- ...
- كالحكايات!
- أجل، كالحكايات...
- الرديئة!
- رديئة بالفعل...

ولم يستطع يوسف إتمام جملته، إذ قاطعته الكفُّ التي هوت على وجهه وكوته بالنار...

- إسمع يا حيوان! أتسخر بي؟ إن لم تعترف فوراً من أين أتيت بهذا الجواز الأجنبي وبمن تأتمر، فكن على ثقة بأن مصيرك سيكون حبل المشنقة... طلع ديني مْنك! يجب أن ننهي تقريرنا، فهمت؟ أجب بالحقيقة ونكفّ عن التعذيب ونتركك ترتاح... هه؟ لصالح من تعمل؟

- لصالح الأمم المتّحدة.

- قُلْ إنك وزير بالمرّة!

- ولماذا أزعم بإني مهندس مائي، وأني اعمل لحساب الأمم المتحدة، إن لم تكن هذي الحقيقة؟

- حسناً، وما هي طبيعة عملك؟

- يرسلونني في مهمّات إلى بلدان العالم الثالث التي تعاني من مشاكل في المياه...

- وماذا تفعل؟ تمنع الأمطار والفيضانات، أو تخترع الة تفبرك السحاب؟

تضاحك الجميع إنهاكاً وتعباً ويأساً منه. كيف يقوى على كل هذا الجهل؟ وما عساه يقول ليتخلّص من أسئلتهم واتّهاماتهم الحمقاء؟ يستعيد وجوههم بعد أن كشفوا عنها اللثام. يتشوّقون إلى مذنب، فكيف يستسلمون وقد وقعوا عليه؟ بل كيف تدخل إلى رؤوسهم قصّةٌ كقصّته، حين لا يقوى، هو من عاشها، على التصديق؟ غير أن الوجع الذي أذاقوه إياه، كان لا يزال طازجاً في المعدة وتحت اللسان، لذلك فقد سارع يقول :

– وما الغريب في الأمر؟ هي مهنة كسائر المهن...

– يكفي! فالمعلومات التي ذكرت، يسهل العثور عليها في أية مجلة أو كتاب... أتعرف، لسانُك هو الذي يتّهمك. تروي لنا قصّة من قصص الخيال، ثم تتحدّث بعد لحظة كرجل متعلّم موزون. وتطلب أن نصدق قولك؟

– إذا كنتم تشكّون في صحّة أقوالي، لماذا لا تتّصلون بسفارتي وتتحقّقون من هويّتي وحقيقة ما رويت...

– أصمتْ يا كلب! وتتهدّدنا أيضاً؟ خذوه من وجهي وإلاّ قتلته بيديّ هاتين...

كلّما تذكّر يوسف كيف دار التحقيق معه، تولاّه الخوف وتساءل : ماذا لو احتفظوا به؟ قد جاء لإنهاء أمر معقّد، وها هو عالق في ما هو أعقد منه. رأس مقطوعة تتجوّل في باص! من يصدّق ومن كان ليتوقّع مثل هذا... غداً، يصل مسؤول من العاصمة. غداً يشرح له. عساه يكون أفضل من ... ألم يكن الرجل الذي حقّق معه محقّاً في هزئه منه؟ بلى. كان على ألف حقّ!

كالحكايات الرديئة بالفعل. هو نفسه لا يصدّق. صبيّ يضيع في الصحراء، ثم يجده أهل إرسالية غرباء، فيضمّونه إلى ميتمهم علّ أحدهم يأتي ويطالب به... لكنّ أحداً لا يأتي. فيبقونه بينهم ويُشرفون على تعليمه... والصبيّ مجتهد وذكيّ ولا أهل له. يتيم... و مرة ثانية، يحملونه ويرحلون به. بعيداً. يكبر ويتخصّص في هندسة المياه... وذات يوم. هكذا. فجأة. بسبب فتاة كانت تطرز كفناً لأبيها في فناء، يقرّر أن يعود...

رائع بالفعل! ولماذا يعود؟ كي يلامس الحجر الذي وقع عليه. أو للانتقام. ممّن؟ من عمّه الذي حمله في خُرج البغل وسار، ثم تركه

وحيداً في الصحراء... عمّه الذي قتل أباه. لأنه الوريث... هاهاها... مضحكة بالفعل! ليست مأساة حتى يستحقّ الحزن بدل السخرية والاستهزاء... يا الله، مضحك ورديء وميلودرامي حتى الغثيان...

وحقيقةً يا يوسف أمضيت عمرك تجري وراءها وتجمع خيطانها حتى اكتملت لعينيك. و أخيراً، حين تسنّى لك البوح بها، سخر منك المشاهدون وهتفوا ضدك... أعود إلى ما هربت منه طوال سنين. طوال عمر. إلى ما ظننت ذاكرتي قد أحرقته ونثرت رماده في مياه المحيط... ظللتُ أهرب. وفي منتصف الطريق، وقعتُ عليها في تلك المدينة الصفراء. قلت : هذي عائلة تبكيني وتكون لي بمثابة الأهل. لكن، ما من خلاص. ما من عزاء. ما من حلّ. تستبدل مكاناً بآخر، حتى تيقنتَ من ضرورة استئصال ذلك السؤال الذي بقي مزروعاً فيك كحربة صدئة. ثم عدتَ...

أهلاً بك! بالوريث! مجد القبيلة كلّه لك! وجثّة أبيك وقد مزّقتها طعنات عمّك. أخيه. أهلاً بيوسف يجيء من حكاية رديئة ولا كل الحكايات. أهلاً به، فهو الوريث... وريث ماذا يا يوسف؟ من؟ ماذا كنت سترث يا هذا؟ قطعاناً؟ قطعاناً من القطاريب ورملاً. الكثير من الرمل. رملٌ على رمل، وكثبان لا وجهة لها ولا قلب... وأمّك التي تهمس من بين الدموع : ولكنه قُتِل! وعمّك الذي يرفعك ويُجلسك على فخذيه ويقول لها : لا تخافي على وحيدك يوسف، كلّنا بمنزلة أبيه... والبغل والليل وذاك الكفن الجميل الذي فرشته في أرض الفناء، فظهر أكثر غواية من أناملها النحيلة تطرز الدعاء على زواياه.... تغرز إبرتها في قلبك، حين تسألها لمن وتجيب : لأبي، قبل أن يدهمني العمر فأجد نفسي في دار أخرى، زوجة لوالد أولادي الصغار... وأبوك يا يوسف، أما من كفن له؟

التهمتك الرمال يا يوسف. انتصرتْ عليك. أحاطت بك من كل حدب وصوب. امتصّت دماءك ومآقيك... فإلى أين عدتَ؟ إلى أين عدتُ؟ حين ذكر ذلك الحارس اسم قبيلتي، هويت متدحرجاً بين الصخور... لكنه أردف بأنه لا يعرف لها مصيراً بعد أن اندثرت القبائل وتفرّقت... فأحياك كلامه وحُييت.

كأسوأ الأبطال لا محالة، وكأشدّهم فراغاً ولا معنى... كمنتقم لأبيه يقف في مواجهة القاتل ويتذكّر في اللحظة الأخيرة، في اللحظة

الحاسمة، أن لا سلاح بين يديه... كذئب عجوز يكشّر عن أنياب سقطت منه... كقبيلة ضاع منها الاسم وبقي الوشم... كشجرة اهترأت جذورها فوقفت تستند إلى طير... كالسطل يا يوسف، مثقوب ولا دراية له... كالبهيمة تخلّى عنها القطيع فظنّت أنها لا تزال فيه، بينما هي تسير في تلال الغبار التي خلّفَها قطيعُها حين غافلها وفرّ...

اغتسلتَ ورفعت راية الماء علّك تأتي على الرمل... الصحراء فيك. متأصّلة ومتجذّرة ولن تقدر عليها سدود وقنوات وبحيرات الأرض... الصحراء فيك. ولو كنت في قلب الغابة أو في المحيط. الرمل في فمك. في عينيك. في قدميك ومتاعك وكل الاتجّاهات. يحاصر روحك. يقضي عليك. كالحوت يبتلعك. كالحشرة يمعسك. كالدودة يتبرّأ منك...

استسلم، فتنتهي ويطمر الرمل يأسك. ويفسح له. لا تعد يا يوسف. وابقَ هنا. تشبّث بذلك الرأس المقطوع كخشبة خلاص... اختلق ولو لمرّة، قصّة تليق بك. كُن بطلاً مرة واحدة في العمر، فيخافك الجميع حتى ولو كان مصيرُك الشنق...

تجيء من جريمة. فاحتكم إليها واقفِل الدائرة بجريمة أخرى حتى ولو لم يكن مرتكبُها أنت! أما جئتَ لتنتقم يا يوسف؟ لتقتل عمّك وتستعيد الإرث؟ ها هو إرثك يدعوك ويقف نصب عينيك. فاهجم عليه ولا تفوّت هذه الفرصة للمرة الألف! أركض يا يوسف. أسرع. واقبض على إرث يهرب منك. قُلْ، هو رأس عمّك ذلك الرأس المقطوع. خذه ذلك الرأس السائب، إنه لك. ضع فيه كل ما تحتبسه من غلّ وضغينة وكراهية وحقد. ارسم على ملامحه وجه أبيك، ثم وجه عمّك الذي بمنزلة أبيك، وارفع الفأسَ واضرب!

أجل يا يوسف، أحسنت! أعِد التمرين واستجمع قواك وقوى كلّ من وما فقدت، واهْوِ بضربة واحدة قاطعة تميد لها الأرض... هيّا. أحكِم قبضتيك على السيف، ثم تهيّأْ واستعدْ.

عُد إلى الماضي قبلاً. إرجع إلى الوراء كي تستعدّ للوثب. للانقضاض. ثم ارفعْ سيفك عالياً واركضْ. أعْدُ. خيّل. واطلق صوتك على مداه بصرخة حرب. واهْوِ على العنق دفعة واحدة. واقطعه ذلك الرأس!!!

- ٢٩ -

- باسم اللّه الرحمن الرحيم... ماذا جرى... صراخ من هذا؟ سنموت جميعاً... حرام عليكم... أنا شيخ ضرير... سترك يا إلهي... سترك يا ربّ...!

انفلتت صرخة يوسف حادة، فقطعت الأراجيح حيث كانت الأفكارتتهادى، متآلفة مع هدأة الليل المقيم. شاكر الصابوحي يولول مطلقاً يديه كعصفورين انطلقا بعد أسْر... مالك يربت على ظهر يوسف : لا بأس عليك، كابوس... لم يكُ سوى كابوس... مريم تنتحب بين ذراعي خدّوجة... السائق يشتم... والحارس يشعل النور فيعمي الأبصار، ثم يطلّ من طاقة صغيرة في الباب، مستيقظاً من نومه ومتسائلاً: من يكون صاحب هذا الصوت الفاجر كي يوافيه بعقاب...

قام محسن مستعيناً بكتف حسنية على الوقوف، وقال وهو يرفرف بهدبيه : حقُّك عليّ... سامحني يا سيدي، هو فأرٌ عضّني فذُعرت...

فردّ الحارس : وتخاف من فأر يا جبان! إن سمعتُ صوتك بعد، قطعت لسانك وأطعمته للكلاب، مفهوم؟

فوقف السائق بدوره وقال : ولماذا ترموننا في هذه الزنزانة وهي لا تتّسع لنصف عددنا على أبعد تقدير؟

فأجابه الحارس : بالفعل، هذا مخفر صغير لا يليق بأمثالكم من أهل المقام والمجرمين الكبار! لكنّي أطمئنكم إلى أن إقامتكم هنا لن تطول. غداً ننقلكم إلى السجن المركزي، فتأخذون راحتكم وتمرحون وتسرحون.

فأطلق معاوية : يا ستّار!

وسأل المعاون : ينبغي أن أبلغ أهلي، فهل ...

فلم ينتظر الحارس البقية، بل أطفأ النور وأغلق الطاقة وغاب.

عاد الركّاب إلى وضعياتهم السابقة بصعوبة بالغة. وماهي إلاّ لحظات، حتى استقرّت العتمةُ في أعينهم واستردّت حدقاتهم اتّساعاً غادرها لدقائق حين فاجأها النور، فانكمشت وتقلّصت لتحمي نفسها منه. وحده غطيط حسن الصوفيّ استمرّ رتيباً في طلوعه ونزوله على سلّم الرقاد الموسيقيّ.

قالت خدّوجة : كيف يقدر هذا على النوم، بالرغم من كل شيء؟

فردّ عبد الفتّاح : إنما الفضل لتأثيرالخمر! قد رأيتُه بأمّ عيني بعد أن أصعدونا في الباص ليقتادونا إلى هذا المخفر اللعين، ينزلق أسفل المقعد، ثم يضع على فمه قُربته فيفرغها دفعة واحدة من دون أن يأخذ ربع نفَس حتى... واللّهِ إنه لمحظوظ! سأله المعاون : وأين الحظّ في ذلك؟

فأجاب عبد الفتّاح : الحظّ في أنهم يئسوا منه سريعاً خلال التحقيق، فضربوه قليلاً إلى أن اشتمّوا رائحته ولحظوا زوغان عينيه، فتركوه...

سأل معاوية : وما أدراك أنت؟

فقال عبد الفتّاح مزعوجاً من كثرة الأسئلة التي انهالت عليه : لأن دوري جاء من بعده! ولأني رأيته حين أدخلوه إلى غرفة التحقيق، فمكث على الأكثر عشرَ دقائق، ثم أخرجوه محمّلاً، شبه مغمى عليه...

أنهى عبد الفتّاح كلامه، فتنهّدت حسنية مصدرة صوتاً أشبه بالمواء. وسارعت مريم تسأل : أهذه أنت خالتي حسنية؟

أجابتها حسنية : أجل ، لا تخافي يا مريم، هي تنهيدة وحسب...

فقاطعها شاكر الصابوحي: يُراعون سكّيراً يستأهل نار الجحيم، ويتعاملون بفظاظة مع شيخ ضرير؟!

قال محسن : بالفعل، هذا ليس عدلاً!

قالت خدّوجة : وعدل أن يرمونا نحن النساء معكم؟ وعدل أن يتّهمونا بجريمة نحن منها براء؟! وعدل أن يفعلوا كلّ ما فعلوه

بجهاز ابنتي العروس؟

قال معاوية : لو لم تكن ملتحياً يا سي شاكر... عفواً، أعني لو لم تكن شيخاً، لما اهتمّوا بك على هذه الشاكلة ولراعوا عماك ربما.

قال شاكر : أعرف يا بنيّ. أحياناً، إنما يجرّبنا اللّه ليختبر إيماننا وثباتنا في الإسلام... سامحهم الله!

قالت خدّوجة : بل قبّحهم وأباد أثرهم!

همس شاكر: يتّهموننا بالتخريب، وهم من خرّبوا هذي البلاد وحادوا بها عن الصراط المستقيم... جفّ ريقي وأنا أردّد أمامهم أنني إنما تكبّدتُ مشاق هذه الرحلة الصعبة وأنا ما أنا عليه من كبر سنّ وإعاقة، لجمع إعانات نستخدمها في بناء مأوى للأيتام...

قال مالك الرضي : تأخذون من أبناء الجنوب كي تعطوا أهل الشمال، وهم أيسر حالاً منّا بكثير، ونحن من نحتاج في الواقع إلى العون والمساعدات؟

قال شاكر : الغنيّ يا بنيّ، غنيٌ بالتقوى والإيمان، لا بالمال والممتلكات... أعزكم الله، هل منكم من يقول لي هل بات الصبح قريباً؟

قال المعاون : وهل تركوا في معاصمنا ساعات؟ أخذوها كلّها أثناء التحقيق...

أدخل السائق يده في جيب بنطلونه بصعوبة، ثم أشعل عود كبريت كي يتبيّن ما تشير إليه عقارب الساعة التي أخرجها من حذائه، وقال : الرابعة تقريباً. ساعة بالكاد ويطلع الفجر...

قال المعاون : الآن صرتم تتمنّون طلوع الفجر! هل نسيتم أن المصيبة الفعلية ستأتي منه؟ أما سمعتم ما قاله الحارس؟ سيحملوننا إلى العاصمة ويرمونا في السجن المركزي...

قال محسن : يا سي مالك، لِمَ لا تتكلّم وتنوّرنا؟ أكاتب في المحكمة أنت أم لا؟

سكت الجميع ينتظرون سماع جواب يخفّف من اضطرابهم ويقصّر حبل تساؤلاتهم الطويل. إلاّ أن مالك بقي صامتاً، مغمضاً عينيه ومتظاهراً بالنوم. فلو امتثل وأجابهم، لما أفلتوه بعد ذلك ولأمطروه بأسئلة تضطرّه إلى كلام لا يشعر اللحظة أنه يقوى عليه...

قال المعاون : أنكزه يا سي يوسف، فأنت الأقرب إليه.

قال السائق : أتركوا المسكين ينام... لا حاجة بكم إلى القلق، فجميعنا نعرف من هي صاحبة الرأس المقطوع وكيس الزيتون. من حسن حظّنا ربما، أن ينقلونا إلى السجن المركزي. علّنا نقع هناك على من هم أعقل من هؤلاء الأربعة المجانين المولعين بالضرب والتعذيب...

قال عبد الفتّاح : عجيبٌ أمرهم يا جماعة. ألم يتساءلوا لحظة، ما هي هذه المصادفة التي تجعلنا ننطق جميعاً بنفس الرواية والشهادة من دون استثناء؟

قال السائق : هو ولعهم بتعذيب الناس وتلذّذهم بترويع الأبرياء. فمن كان مثلهم، لا يفوّت على نفسه فرصة الاستغراق في لعبة الشرطة واللصوص... أقسم بشرفي وبحياة أطفالي، انهم يلعبون! لقد تسلّوا بنا قبل تسليمنا إلى من تعود إليه صلاحية إطلاق سراحنا. هكذا يُثبتون أنهم ليسوا عاطلين عن العمل، يفرّجون عن كربتهم، وينتقمون...

شعر الركّاب بشيء من الارتياح لسماع السائق يلقي بمداخلته تلك. غير أن الخوف والريبة عادا يتشبثّان بالحناجر، حين سأل شاكر الصابوحي : وماذا لو وافت المنيّة تلك المرأة لا قدّر الله، مع أنها تستحقّ الرجم، بل الشنق وأشدّ العقاب؟ هه...؟ لقد رميتموها مع صاحب الحنطور ليصطحبها إلى بني حدّاد، ونحن نعلم جميعاً أن تلك ليست قريتها، وإنما ادّعى السائقُ ذلك ووافقناه نحن -ضمنياً أجل، لكننا وافقناه- كي نتخلّص منها ومن عبئها الثقيل، فهل...

أحسّ السائق بأنه هدف لهجوم ما كان يتوقّعه، فقاطع شاكر الصابوحي يقول : صاحب الحنطور يشهد لنا، والشيخ صاحب قفّة التين! فخرج صوت حسنية مهتزّاً مثقلاً بالقلق يتلوّى وينوح : لكننا لا نعرف اسماً لهما ولا وجهة ولا مقراً... يا ويلي أنا... راحت علينا! قلبي ينبئني بمصيبة، سترون!

سكت شاكرممتعضاً ومواريا غضبه واستياءه. فكم كان بودّه لو يصرخ بحسنية أن تخرس، إذ منذ متى تتدخّل النساء -وهنّ بانصاف عقول- في أمور لا تعني سوى الرجال؟ لكنه كتم غيظه في

صدره وتابع : أنا لا أزعم بأنهم سيحكموننا بالإعدام، لا سمح اللّه. لكن الوضع معقّد جداً يا إخوان، وسوف يطول إيقافُنا حتماً حتى تنجلي لهم حقيقة الأمر...

عادت حسنية تقاطعه مجدّداً. لكنها جاءته هذه المرّة بالدعم المطلوب معطيةً الحديث الوجهة التي كان شاكر يحلم بها ويسعى إليها، حين تساءلت : ومن قال إنهم لن يتّهمونا زوراً، فيُلصقوا الجريمة بواحد أو واحدة منّا، هه؟ السجون مليئة بالأبرياء مثلنا وأنتم تعرفون...!

تراقص قلب شاكر فرحاً، فنهره محاولاً التحكّم بنبرته قدر الإمكان وقال : نطقتِ بالحقّ يا أخت حسنية وصدقتِ! فكم لنا من معارف وكم سمعنا بأناس زُجّوا في الحبوس وأُعْدِموا بتُهم ملفّقة من ألفها حتى يائها، كي يكونوا عبرة لمن لا يعتبر وكي تبقى العصا هكذا مرفوعة فوق الرقاب؟ ومن يعلم، قد يتّهموننا أيضاً بالتآمر والانتماء ربما إلى جماعة تخريب وإرهاب... لا عدالة في هذه الأرض أقول لكم. فإن متنا، فيعزّينا أننا شهداء الظلم ولنا في الآخرة ثواب ونصيبٌ في الجنّة... فلنقرأ الفاتحة، رحمكم الله...

يراهم بوضوح بالرغم من عماه. يراهم ولا يرونه. يغزل لهم كميناً ويحفر، حتى يقعوا في شباكه. هذه فرصته الأخيرة. وإلاّ قبض عليه هؤلاء الزنادقة الأشرار، وما أفلتوه لو اكتشفوا هويّته ومن يكون وما جاء يفعله ها هنا في الجنوب.

أجل، جاء لجمع أموالٍ وللالتحاق باخوان له مجاهدين اختبأوا في القرى النائية وقد تفتّحت عليهم العيون... بدأ يمسك بطرف الخيط. يشعر باستعدادهم الكلّي للّحاق به بعد أن رذلوه واستبعدوه وعزلوه... عساه أن يصل إلى مبتغاه فيمتثلوا لمشيئته. وإن فشلت خطّته مع هؤلاء السفلة رجال الأمن، يكون قد حاول شيئاً على الأقل...

تقبّل اللّه منكم، إنه السميع المجيب! ثم مسح وجهه براحتيه، وكان العرق يتصبّب منه، وصمت متيقّناً من أن صمته لن يطول وأنه سيزيدهم تعلّقاً به وإصغاء لما سيشير به. وبالفعل، قالت خديجة وهي على حافة البكاء : والحلّ يا شيخنا؟ أشرْ علينا، أدامك الله وأعطاك طول العمر!

الحلّ؟ أجاب شاكر، واللّهِ لا أرى سوى أن نختار من بيننا من يكون كبش فداء لأيام. والمعنى؟ سأل محسن القصّاب مذعوراً، متأكّداً من أن القرعة ستقع عليه. فأجاب شاكر : أو يتطوّع أحدنا، أو نتّفق فيما بيننا ونختار... مَنْ مثلاً، أطلق السائق وكأنه حزر مسبقاً نوايا الشيخ الضرير، فردّ هذا الشيخ مختصراً النقاش وطول أخذ وردّ قد يجعل الأمور تفلت مجدّداً من يديه، وقال : السكّير! فاعترض السائق صارخاً : حسن الصوفي؟! فسارع شاكر يضيف : قسماً باللّه، إنّ سجنه لخيرٌ وحلال! ومن يدري، ربما حلّت النعمة عليه، فاعتبر واهتدى وانفطم نهائياً عن المذموم والفحشاء... إسمعوني جيّداً. سيأتون بعد قليل، وحينها لن ينفع الندم أو صرير الأسنان... الأمر عائد إليكم. فإما أن تقرّروا الوشاية به على أنه هو صاحب الرأس المقطوع؛ وإما أن تقع الكارثة جماعية، وحينها، اللّه وحده يعلم إلى ما سنؤول...

وجم الركّاب مقطوعي الأنفاس مضطربي الأفئدة والأوصال. فلم يمهلهم شاكر الصابوحي، بل زاد من ضراوة الهجوم بأن أضاف : في النهاية، هو وحده المسؤول عمّا يصيبنا الآن! لو قبل بإعطاء تلك الدرّاجة إلى رجل الأمن الشرّير؛ لو لم يكن أخرق أنانياً فقبل بالتضحية في سبيل الآخرين، لما وقعت لنا هذه المصيبة ولكنّا الآن بخير وأمان... وعقّبت خدّوجة تقول : ولكانت مراتي الجميلة لا تزال كاملة مكتملة كبدر منير. ثم أجهشت بالبكاء...

كان حسن الصوفي ينام هانئاً قرير العين مستريح الضمير، غير عابىء بأشعّة فجر راح يتململ نائياً فوق صدر الصحراء.

ينام. بينما الركّاب يحيكون في رؤوسهم المصيدة التي سوف تطبق فكّيها عليه، بعد أن صنعوا منه طريدة تعجّ دروبُها بمئات الأفخاخ.

- ٣٠ -

يتأخّر الوقت عليهم، فيستقرّ نور الصباح ضجراً فوق وجوههم المنغلقة عليه.

ويروح حسن الصوفيّ يتحرّك في سباته كمن يتسلّق على مهل السلالم المرتفعة التي تفصله عن باب يقظة وشيكة سيلجه بعد قليل. يصعد وئيداً بعض الدرجات. يأخذه النوم مجدّداً. فيستلقي لحين، ثم يعاود صعود السلّم من جديد.

وينام حسن.

وينتظرون...

كانوا جميعاً محدّقين فيه. تتكدّس نظراتهم صخوراً ثقيلة فوق جسمه المتكوّر على ذاته كالجنين. لا شيء يضيفونه بعد الآن. وانتظارهم يتمرّغ في الصمت بعدما انتهى الكلام بينهم وفيهم. ورَجْع الحوار الذي دار وكبا مع إطلالة الصبح، يصمّ قلوبهم بصداه.

تابعوا نقاشهم إلى حين، مع أنهم كانوا يعرفون مسبقاً وسلفاً أنه شكليٌّ فحسب. أفلم يكن هدفهم واحداً تمّت الموافقة عليه بالإجماع؟ إجماع رَاوَحَ بين الصمت والتفوّه بجمل بقيت معلّقة في الهواء. بين الحماسة والانكفاء. تعليقات استنكار خرجت من هنا وهناك، كانت نوعاً من الاعتراض المبتذل الرخيص. قصير المفعول ولا ينفع في مداواة ضمير تمرّس بمختلف أنواع الأمراض، فقسا وتحجّر وتصلّب كالصوّان :

... نجمع له بعض مال نتبرّع جميعنا بشيء منه، ونضعه في جيبه قبل أن يستفيق... هكذا لا يحتاج أحداً. وربما رشا حارساً يوافيه بما يحتاجه من خمر، فيبقى نائماً إلى أن تنجلي الحقيقة وتظهر براءته...

... لا أولاد عنده. وربما لا أهل... هل ذكر أمام أحدكم وجهة له؟ حسن لا مقصد له إلاّ الحيرة والتيه... شريدٌ يهيم على وجهه، وكل الأمكنة تتساوى في عينيه وتليق به... ينام في الطرقات، لذلك فلن يضيره الحصول على سقف وفِراش ووجبات أكل لأيام، حتى ولو كان هذا داخل السجن...

... ونقول إننا ظننّا أن المرأة الحامل هي صاحبة كيس الزيتون. ثم اتضّح لنا خطأنا حين اعترف حسن الصوفي بأنه كان قد رفع الكيس -وهو له- إلى ظهر الباص، حين كان السائق عند الطبيب والمعاونُ منهمكاً في توضيب الحمولة وإيثاق المتاع...

... ونقول إنما أتيح له ذلك لأنه كان نزيل الميدان حيث وقف الباص... وإن المرأة الحامل كانت موضع شبهتنا لأنها هي أيضاً اصطحبت كيس زيتون ألقيناه معها في الحنطور، معتقدين أننا أعطيناها بالغلط متاعاً لراكب من الركّاب...

... ونقول إننا لم نستنبط شيئاً من هذا... وإن حسن الصوفي بذاته هو من رواه بغير إرادة منه وتحت تأثير الخمرة عليه... وإن الرأس المقطوع كما اعترف، هو لزوج المرأة التي يحبّ... وإن شتلة النخيل التي اقتلعها من حديقتها هي الإثبات القاطع والبرهان...

... ونقول إننا...

... ونقول إنه...

... ونقول...

- ٣١ -

استقام حسن وفتح عينيه، فانفتح الباب وظهر الحارس نشيطاً حليقاً طازج المزاج وقال : قدم ضابط المباحث من أجلكم خصّيصاً! ينتظركم في الخارج وله كلامٌ معكم. فانهضوا بسرعة واتبعوني في الحال...

في الخارج، وقفوا متحاشرين متلاصقين لا يقوون على ضوء النهار. فبادرهم الضابطُ إلى القول : حصل خطأ يا إخوان. أنتم أحرار...

ظلّوا جامدين في أمكنتهم لا يصدّقون ما سمعوا ولا يجرؤون على التقدّم أو التراجع إلى الوراء. فما كان من الضابط إلاّ أن أعاد جملته تلك، مصحوبةً بصوتٍ يعلو حريصاً على اتّباع إيقاع موزون : - أن-تم أح-رار! أسمعتوني أم لا؟

خرج حسن الصوفي عن الجماعة وراح يهلّل ويقفز ويتمرّغ في التراب، إلى أن استلقى على ظهره لاهثاً يتأمّل زرقة السماء. أما الباقون، فاستمرّوا متلاحمين مشكّلين كتلة لزجة جعلت تميع أكثر فأكثر تحت لهيب الريبة والظنون.

همّ الضابط بالصعود إلى سيّارته، فهبّ حسن الصوفي يستوقفه وينادى : سيدي! عذراً منك ولكن، هل لي بسؤال؟ كيف اكتشفتم الحقيقة، وما الذي استجدّ؟

استدار الضابط عابساً ثم قال : لحسن حظّكم، اعترفت المرأة خلال نزاعها بأنها قتلت زوجها وقطّعته إرباً راحت تدفنها في أمكنة

متفرّقة، حتى تبقى لها الرأس. فعزمت أن ترميه في البحر، ثم التقت بكم فقرّرت أن تبتعد به. لكنّ آلام الوضع فاجأتها في الطريق، فجرى ما جرى إلى أن وصلنا الخبر بأن صاحب الحنطور بلّغ الشرطة بما اعترفت به، وكانت قد دلّته على الأماكن التي دفنت فيها بقايا الزوج...

سكت الضابط هنيهة، ثم أضاف ملتفتاً ناحية الركّاب : لو حصل وماتت تلك المجرمة قبل أن تُدلي باعترافها، لكنتُ استدللت بوجوهكم وكلّها تخفي أمراً ما، ولما رأيتُ فيكم من يكون بريئاً بشكل كامل، أو غير كفيل بارتكاب ما هو أفظع من هذه الجريمة بكثير... اغربوا عن وجهي الآن...

قال هذا، وانفجرت أسنانه الكثيرة بضحكة اقشعرّت لها الأبدان، ثم صعد في سيارته آمراً سائقه بالانطلاق.

... وقيل إنّ حسن الصوفي اكتشف فيما بعد، ما كان يبيّته له الآخرون. فأمر السائق بالتوقّف، ثم نزل من الباص، فرمى على نخلته خمراً وأضرم فيها النار.

وقيل إنه بكى بكاءً مُرّاً. ثم فكّ وثاق درّاجته، فركبها ومضى في الاتّجاه المعاكس للباص.

وقيل إن الركّاب ثابروا في مقاصدهم، فابتعد بهم الباص ضارباً بحوافره الرمل، فأحاطته سحابةٌ من الغُبار، فغاب بمن فيه واختفى وامّحى كلُّ أثرٍ له...

هذا بعضٌ ممّا رُوِيَ وقيل

واللّهُ أعلم !

– تمّت –

صدر للمؤلّفة :

المُحَوَّل - رواية
دار مختارات. بيروت ١٩٨٦

حياة وآلام حمد ابن سيلانة - رواية
دار الآداب. بيروت ١٩٩٥

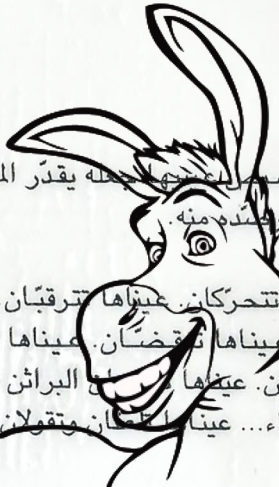

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

كانت له بالمرصاد. بصمت. عيناها تجعله يقدّر المسافة التي تفصله عنها والموضع الذي تترصّده منه.

عيناها فيه. عيناها لا تتحرّكان. عيناها تترقّبان. عيناها تضبعان. عيناها تفترسان. عيناها تنقضّان. عيناها تعضّان. عيناها تنهشان. عيناها تزأران. عيناها تنشبان البراثن في اللحم، تقطّعان الشرايين فتنفجر الدماء... عيناها تلتمعان وتقولان: جاء دورك يا عبد الفتّاح.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت